القبر المُقَدَّس



عبد الوهاب أبا الخيل

القبر المُقَدَّس
عبد الوهاب أبا الخيل

القبر المُقَدّس

القبر المقدّس

عبد الوهاب أبا الخيل

الطبعة الأولى


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أحب الناس إلي، وأعظمهم حقاً علي، وأحقهم بحسن صحابتي..

إلى من لا أدرك لها جزاءً، ولا ألحق لها كفاءً، ولا أستطيع أن أؤدي لها حقًّا..

إلى التي رعتني وربتني، وأحسنت بي وإلي، ولا زلت أتفيّأ نعيم الطفولة في ظلها، وأنس الحياة بقربها.. وأستنزل البركات بدعائها..

إلى أمي حصة المحمد الحمود العامر الشمرية.

سائلًا الله عز وجل أن يجعل هذا الكتاب من العلم الذي ينتفع به، ويتتابع عليها أجره وبره وذخره، وأن يتولى ربي كفاءها وجزاءها بما لا أستطيع كفاءه، فيجزيها عني خير ما جزى أمًّا عن ولدها، وأن يبارك في عُمرها، ويَنْسأ في أجلها على عافية وحسن عمل.



طفلكِ ذاك الصغير

عبد الوهاب

شكر وتقدير

هذا الكتيب الذي بين يديك ضميمةُ جهدٍ ونظرٍ جمعي، من جهود سابقة، وتعاون إخوةٍ كرام، تداولتُ مضامينَه معهم فأفسحوا له من وقتهم ومشاغلهم، وأفادوني تسديداً وتقويماً، وإضافة وتتميماً، فلهم مني الثناء والشكر، ومن الله المثوبة والأجر.

وأخص منهم بالذكر:

أستاذنا أ.د محمد بن فارس الجميل، فقد استفدت من كتابه: «**بيوت النبي وحجراتها**».

والشريف السيد ضياء بن محمد عطار، وقد أفدت من كتابه: «**التعريف بتاريخ ومعالم المسجد النبوي الشريف**».

وإخوتي المشايخ الكرام:

الشيخ د. عبد الإله العرفج.

د. عبد الله بن ناصر الدوسري.

د. خالد بن فهد القحطاني.

الشيخ د. عبد الرحمن بن عبد العزيز السبيعي.

الشيخ عبد العزيز التميمي.

الشيخ راشد الأسعدي.

الشيخ أحمد بن محمد الدوسري.

الأستاذ خليل بن صالح بن عبد العزيز.

الشيخ محمد زبير جامي.

وأسأل الله أن يجعلهم شركاء في الثواب الذي نَحْتَسِبُهُ، والأجر الذي نَتَطَلَّبُهُ، وأن يحسن جزاءهم، ويتولى كفاءهم، ويجمعني بهم في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

المقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

تحية من عند الله مباركة طيبة وبعد:

فهذه رسالة مستلة من كتاب: «**أماكن نبوية**»، والذي تحدثت فيه عن الأماكن النبوية في المدينة المنورة وما حولها، وما جرى فيها من أحداث، بحيث يُقدِّم الحدث التاريخي في وعائه الجغرافي، وتُروى الوقائع مرتبطة بمواقعها، فهذه الأماكن شواهد وشهود على ما وقع بها من أحداث السيرة النبوية وحوادثها.

وقد رأيت إفراد ما يتعلق بالقبر النبوي في رسالة مختصرة يسهل بقراءتها أخذ إلمامة موجزة عن القبر المقدس، والذي تتوجه أشواق المسلمين إلى القرب منه، والوقوف في رحابه، والسلام على ساكنه صلوات الله وسلامه عليه.

وقدمت لذلك بحديث مختصر عن البيت النبوي الذي بناه النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** حين قدم المدينة، وما كان أحد يدري أنه يبنى بيت حياته وقبر مماته، وأنه سيكون مأواه حياً ومثواه ميتاً.

ثم تممت ببعض ما يتعلق بالقبر النبوي، وبخاصة آداب زيارته والسلام عليه، والوقوف بين يديه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

سائلاً الله أن يهدينا جميعاً للتي هي أقوم، وأن يغفر لنا سهونا وخطأنا، وما قَصُر عنه علمنا.

فإلى عتبات البيت النبوي ورحاب أنواره...

بيوتات النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** التي عاش فيها، هي تلك البيوت التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، هي البيوت المعطرة بأنفاس النبوة، وتلاوة القرآن، وتنزلِ روح القدس ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾.

فإلى بيت من بيوتات النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، إلى بيت عائشة الصديقة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، البيت الذي آوى النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** عشر سنين من عمره المبارك.

هو البيت الذي شهد إغفاءةَ نومِه، وقيام تهجده، وشهد تسابيح السَّحر، وقرآن الفجر، شهد النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** وهو يفتق حيوية الحياة أُنساً وبهجة، وطيب عشرة مع أهل بيته، فقد كان **صلى الله عليه وآله وسلم** أعظم الناس خُلقاً، وكان أسعدَ الناس بحسن خُلقه أهلُ بيته.

فباسم الله نستأذن ونستأنس ونسلم..

فلو اقتربنا إلى بيت النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** وجدناه ملتصقاً بالمسجد من الجهة الجنوبية الشرقية، ينفذ بابه إلى المسجد من حائط المسجد الشرقي، فهو أقرب إلى زاوية المسجد الشرقية

الجنوبية، وعلى هذا الباب سترٌ هو مِسحٌ[1] من صوف، يستر هذه الحجرة والبيت عن المسجد النبوي، فإذا أراد النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** أن يخرج كشف هذا الستر، فأشرق محياه على المسجد الشريف.

وعلى هذا الباب وقف **صلى الله عليه وآله وسلم** آخر موقف في حياته، في آخر يوم من أيام عمره؛ ليلقي نظرة الوداع على أمته، ويودعها قبل أن يودع الحياة، ينظر إليهم كأن وجهه ورقة مصحف[2].

فإذا رفعنا الستر ودخلنا، وجدنا دار عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مكوَّنة من وحدتين متلاصقتين:

الحجرة، وهي الفناء المكشوف[3].

والبيت، وهو البناء المسقوف.

(١) مسح: كساء غليظٌ من الشَّعرِ. ينظر: «تاج العروس» (٧/ ١٢٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٣) ينظر: تحقيق ذلك في كتاب أستاذنا د. محمد بن فارس الجميل حفظه الله: «بيوت النبي ﷺ وحجراتها».



(رسم تخيلي للبيت النبوي)

أما الحجرة فإنا ندخل إليها من المسجد، أي: بمجرد كشف الستر ونقل القدم من عتبة الباب، نكون في هذه الحجرة، وهي عند العرب: الفناء المحتجَر غير المسقوف.

سورها من الشمال والجنوب جريد النخل مصفوفة بعضها إلى بعض، مربوطة بحبال من صوف إلى خشبات منصوبة من العرعر حتى تشد إليها، أما جدارها الغربي فهو جدار المسجد، وأما جدارها الشرقي فهو جدار البيت.

أما مساحة هذه الحجرة المكشوفة فهي ستة أذرع في سبعة أذرع[1]، ما يقارب (٣مترا × ٥ , ٣مترا)، ويبلغ مجموع مساحتها (٥ , ١٠م٢).

فهذا الفناء المكشوف هو ما يسمى حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو المكان الذي تقع فيه الشمس، ولذا تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** يصلي العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء بعد»[2].

وهو فِناء البيت الذي يجلسون في دفْء شمسه شتاء، وفي برد ظله صيفاً.

في هذا الفِناء توضع البُرمة التي يُطبخ فيها الطعام، وهي قِدر من الفخّار أو من الحجارة؛ لأن النار لا توقد داخل البيت، وإنما توقد في الفِناء، وفيه أيضاً القربة المعلقة التي يُبرَّد فيها الماء.

والذي يجلس في هذه الحجرة لا يكون بينه وبين المسجد إلا هذا الستر الذي على الباب، ولذلك يسمع من كان في المسجد قريباً من الحجرة ما يكون فيها.

يقول ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ أَبِيتُ عِنْدَ حُجْرَةِ النَّبِيِّ **صلى الله عليه وآله وسلم**، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ،

(١) ينظر: «الأدب المفرد» (١٥٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٤٥، ٥٤٦)، و«صحيح مسلم» (٦١١)، و«سنن النسائي» (٥٠٥).

يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» الْهَوِيَّ[1]، ثُمَّ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ**» الْهَوِيَّ[2].

وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصلي الضحى، فيسمع من في ناحية المسجد القريبة منها صوت استنانها بالسواك إذا أرادت أن تصلي[3].

وذلك للقرب الشديد من المسجد وعدم وجود حواجز سوى هذا الستر.

أما بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فهو البناء المسقوف، ويسمى البيت: أي مكان البيات الذي يبيت فيه أهله، ويكون مسقوفاً، وله باب يغلق.

فإن سألت عن بنائه فهو على ذات الطراز الذي بني عليه المسجد، فأساسه من الحجارة؛ لأنهم يضعون الحجارة في أساس البناء، وهو جزء الجدار الأسفل مما يلي الأرض، إذ لو كان الأساس لَبِناً من الطين لأذابه جريان السيل فانهار، فيجعلون الأساس حجارة، ثم يبنى عليها بلَبِن الطين.

---

(١) الهوي: طَائِفَة من اللَّيْل. ينظر: «الفائق في غريب الحديث» (٤/ ١١٩).

(٢) «مسند أحمد» (١٦٥٧٤)، و«جامع الترمذي» (٣٤١٦)، و«سنن ابن ماجه» (٣٨٧٩)، و«سنن النسائي»» (١٦١٨). قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) «مسند أحمد» (٢٥٢٣٨)، و«صحيح البخاري» (١٧٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٥٥). واستنانها أي تحريك السواك في فهما قبل الصلاة.

أما مساحة هذا البيت فهو عشرة أذرع في سبعة أذرع (٥متر × ٥ , ٣مترا) تقريباً، أي أن مساحته أقل من عشرين متراً[١]، وأما ارتفاعه فهو كارتفاع المسجد خمسة أذرع، يقول الحسن البصري: دخلت حجرات أمهات المؤمنين، فإذا رفعت يدي أصبت سقفها[٢].

وأما سقفه فشقائق جذوع النخل، وعليها الجريد والإذخر، وفوقه طبقة غليظة من الطين، وعليه حائط قصير جداً، وفي السطح ميزاب من الخشب لنزول ماء المطر منه.

وللبيت بابان: باب يفتح إلى جهة الغرب في زاويته الغربية الشمالية، يخرج هذا الباب إلى الحجرة، وهو مصراع[٣] واحد من خشب العرعر المصفوفة إلى بعضها، ولا تكون عادة متطابقة منضدّة، وإنما يكون بينها فجوات طولية هي خلل الباب بسبب عدم استقامة الأخشاب، ولذا ربما حاولت بعض العيون التي لم تفقه بعد في الدين النظر من خلل الباب لترى ماذا في بيت **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، وهو سلوك كان النبي ينهى عنه

(١) وقدرها أستاذنا محمد بن فارس الجميل في كتابه «بيوتات النبي وحجراتها» (ص:٤١) بـ(٥٠ , ١٧م)، سبعة عشر متراً مربعاً ونصف متر تقريباً.

(٢) «السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٣١٣)، و«الطبقات» لابن سعد (١/ ٣٨٨)، و«الأدب المفرد» (٤٥٠)، و«المراسيل» لأبي داود (٤٩٧).

(٣) المصراع: أحد البابين اللذين ينضمان جميعا إذا كان المدخل واسعا، وتسمى الدرفة، فإن كان ضيقا كفاه مصراع واحد. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ١٩٩).

ويُحذر منه[1].

وباب آخر يفتح شمالاً في نهاية الجدار الشمالي عند الزاوية الشمالية الشرقية، وهو باب صغير يمكن تسميته باب خدمات، يُخْرج منه إلى البقيع والمناصع[2].

ومما يوضح هذا التفصيل لمرافق البيت حديث: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا»[3].

فإن سألت عن المتاع في هذا البيت فإنك إذا دخلت من الباب رأيت على اليمين سرير النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** في الزاوية الجنوبية الغربية.

ولم يكن من عادة أهل المدينة اتخاذ الأسِرَّة وإنما كانت عادة قريش، ولذلك لما جاء النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** المدينة بحثوا له عن سرير فوجدوه عند أسعد بن زرارة فوضع له **صلى الله**

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٧).

(٢) المناصع: موضع في الشمال الشرقي من المسجد شمال البقيع، وكان فضاء تخرج إليه النساء بالليل لقضاء الحاجة على عادة العرب قبل أن تتخذ الكنف في البيوت. ينظر: «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص ٢٧٩). وهي الآن داخلة في مساحة توسعة المسجد النبوي كما أفاد الأستاذ تنيضب الفايدي.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٧٠) من حديث عبد الله بن مسعود. وقال الألباني: صحيح على شرط مسلم. ينظر: «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٠٨).

و**المخدع**: مكان صغير داخل الغرفة الكبيرة يكون كالخزانة. ينظر: النهاية (٢/ ١٤).

عليه وآله وسلم[1]، وعلى هذا السرير فراش من جلد حشوه ليف، وعليه وسادة واحدة من جلد حشوها ليف؛ فإذا جاء ضيف إلى النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** رمى له هذه الوسادة ليجلس عليها، كما في خبر عدي بن حاتم في قدومه على النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** قال: ثُمّ مَضَى بِي **رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم** حَتّى إذَا دَخَلَ بِي بَيْتَهُ تَنَاوَلَ وِسَادَةً مِنْ أَدَم مَحْشُوّةً لِيفًا، فَقَذَفَهَا إلَيّ فَقَالَ: «**اجْلِسْ عَلَى هَذِهِ**» قَالَ: قُلْت: بَلْ أَنْتَ فَاجْلِسْ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «**بَلْ أَنْتَ**» فَجَلَسْت عَلَيْهَا، وَجَلَسَ **رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم** بِالْأَرْضِ قَالَ: قُلْت فِي نَفْسِي: وَاَللهِ مَا هَذَا بِأَمْرِ مَلِكٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ صَنَعَ مَا صَنَعَ وَقَعَتْ عَلَيَّ غَضَاضَةٌ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ يُرِيدُ عُلُوًّا فِي الدُّنْيَا وَلَا فَسَادًا[2].

وحين نام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** نام النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** وزوجته ميمونة في طول الوسادة ونام ابن عباس في عرضها[3]، وكان نوم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** في فصل الصيف، ولذا نام مع النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** في الحجرة، وليس في البيت، وعلى الأرض، وليس على السرير.

وليس في البيت فراش آخر للجلوس؛ ولذلك فإن النبي **صلى**

(١) «تركة النبي» (ص١٠٤-١٠٥)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٥٢٥).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٨٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٤٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٥٧٠)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

الله عليه وآله وسلم إذا قام يتهجد من الليل يصلي على فراشه الذي ينام عليه مع زوجته، فيصلي وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا معترضة بينه وبين القبلة، فإذا أراد أن يسجد غمزها فتكف رجلها، وإذا قام مدت رجليها[1]، وقد يظن من يقرأ هذا الخبر أن ذلك لضيق المكان، وليس كذلك، ولكن لضيق الفراش.

وهناك أثاث قليل من ضرورات الحياة في ذلك الوقت، ومنه حصير صغير من السعف يسمونه الخُمرة، يتسع للوجه واليدين إذا سجد عليه المصلي، وهو يشبه السجادة المستعملة الآن للصلاة، وكان يستعمل في ديارنا قديماً، أدركنا كبار السن يصلون عليه، ويسمونه «المُصَلىَّ».



(صورة للحصير، وهو فراش ينسج من سعف النخل)

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٢، ٥١٣، ١٢٠٩)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

وهناك سَهوة[١] في الجدار توضع فيها الأشياء الصغيرة عادة، ولما قَدِمَ **رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم** مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَوْ خَيْبَرَ، ورأى على سَهْوَة عائشة سِتْرٌ، فَهَبَّتْ الرِيحُ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ هي لُعَبُها، فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟**» قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ[٢]، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟**» قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: «**وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟**» قَالَتْ: جَنَاحَانِ، فقَال مُتعاجِباً: «**فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟**» قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ»[٣].

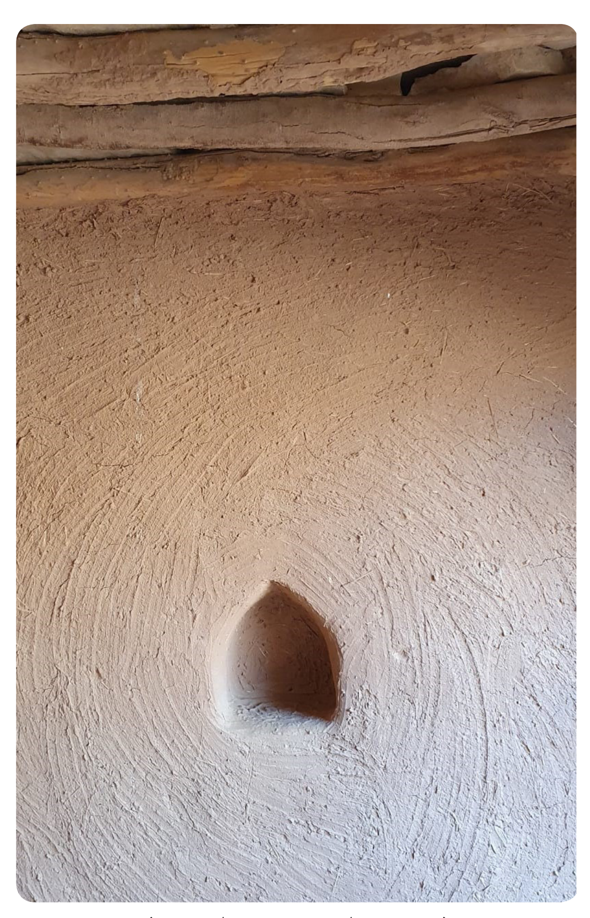


(صورة للسهوة وهي تجويف في جدار الطين)

(١) السهوة: تجويف في الجدار الطيني الذي يكون عريضاً، فيكون فيه تجويف مرتفع في عرض الجدار لرفع الأمتعة الصغيرة، وقد رأيت مثاله في بيوتنا الطينية، وفي مساجد الطين أيضاً، ترفع فيه المصاحف.

(٢) أي: من جلد.

(٣) «سنن أبي داود» (٤٩٣٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠١).



(صورة السهوة في الجدار)

وفي البيت رفٌّ، وهو خزانة من خشب، يوضع فيها التمر أو الشعير، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ**»(١).

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٣).

وكان فيه أصواع من شعير استلفها النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** من يهودي ورهنه درعه، قالت عائشة: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وآله وسلم** وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ»[(١)].

وفي البيت: الصَحفة[(٢)]، والبُرمة[(٣)]، والشَّنُّ[(٤)]، والقدح[(٥)]، ونحوها من متاع الناس حينها.



(صورة للبرمة، وهي قدر حجري)

(١) «صحيح البخاري» (٢٩١٦).

(٢) الصحفة: صحن خشبي يشبع الخمسة ونحوهم. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ١٨٧).

(٣) البرمة: القدر المتخذة من الحجر. ينظر: لسان العرب» (٩/ ٣).

(٤) الشَّنُّ: القربة القديمة من الجلد تستعمل لحفظ الماء وتبريده. ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ٢٤١).

(٥) آنيَةٌ للشُّرْب. ينظر: «تاج العروس» (٧/ ٣٩).

ولم يكن في هذا البيت سراج للإضاءة؛ لأن وقود السراج الزيت؛ وهو قليل جداً، فإذا وجد فهم أحوج إليه إداماً للأكل، قالت عائشة: «بَعَثَ إِلَيْنَا آلُ أَبِي بَكْرٍ بِقَائِمَةِ شَاةٍ لَيْلًا، فَأَمْسَكَ **رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم** وَقَطَعْتُ، أَوْ أَمْسَكْتُ وَقَطَعَ، فَقَالَ الَّذِي تُحَدِّثُهُ: أَعَلَى غَيْرِ مِصْبَاحٍ؟ فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مِصْبَاحٌ لَائْتَدَمْنَا بِهِ- أي جعلناه إداماً لطعامنا- إِنْ كَانَ لَيَأْتِي عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ **صلى الله عليه وآله وسلم** الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِزُونَ خُبْزًا، وَلَا يَطْبُخُونَ قِدْرًا»[(١)].



(صورة للقربة، وهي وعاء من الجلد يُحفظ ويُبَرد فيها الماء)

(١) «مسند أحمد» (٢٥٨٢٥).





(صورة الصحفة وهي صحن خشبي)

وهذا البيت النبوي على تقارب جُدُره، وتطامن سقفه، وصغر مساحته، وقلة متاعه، هو البيت الذي بناه **صلى الله عليه وآله وسلم** في السنة الأولى من الهجرة؛ ليسكنه مع أحب الناس إليه زوجته عائشة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم تتابعت عشر سنين وتغيرت فيها أحواله من القلة إلى الكثرة، ومن الضيق إلى السعة، ومع ذلك بقي في بيته هذا فلم يغيره، ولم يزد فيه، مع أنه قد فتح الله له البلاد، وأفاء عليه أرض بني النضير وآطامهم، فما اختار منها بستاناً يسكنه، ولا حصناً يتعالى فيه.

وكانت الأموال تجبى إليه فينثرها في المسجد ويقسمها حثواً في الثياب، ثم ينقلب إلى بيته وينام على سرير مرمول بحبال ليف؛ إذا نام عليه أثَّر في جنبه الشريف.

عَنِ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّبِيِّ **صلى الله عليه وآله وسلم**، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا! فَقَالَ: **«يَا عُمَرُ؛ مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا وَلِي، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**(١).

---

(١) «مسند أحمد» (٢٧٤٤)، و«صحيح ابن حبان» (٦٣٥٢)، و«المستدرك» (٤/ ٣٠٩).

إنّ النبي الذي عاش على هذه الحال من الإيثار والكفاف، لم يُحَرّم الطيبات، ولم يأمر أتباعه بمجافاتها، فهو الذي أنزل عليه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾، و ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

ولذا توسع بعض أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فيما أحل الله لهم، وابتغوا الطيبات من الرزق.

ولكن النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** تجافى عنها فلم يتخذها ولم يدخرها؛ حتى لا يُظن أنه أخذ على دعوته عوضاً دنيوياً، ولا أصاب حظاً من أموال الناس مقابل تبليغ رسالته، فقد كان إعلانه وإعلان الرسل قبله: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ولذا عاش **صلى الله عليه وآله وسلم** بين الناس، ثم لحق بالرفيق الأعلى؛ من غير أن يرزأ الناس شيئاً من دنياهم، أو يحتجز منها شيئاً يتمتع به دونهم.

كما أن أشواقه **صلى الله عليه وآله وسلم** كانت هناك في منازله العلى في الجنة، فعن سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال في حديثه الطويل في رؤيا النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** ودخوله الجنة: فقيل له: «وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالاَ: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالاَ: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ

اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»[١].

فكان **صلى الله عليه وآله وسلم** يعيش في هذه الدنيا، وهو في انتظار النقلة إلى منازله العُلَى في الجنة.

أتخيل حاله كحال من كان يشيد قصراً يوشك أن يُتمه، وهو ساكن في بيت صغير؛ فإن نظره إلى القصر الذي يشَيده وسينتقل إليه، وليس إلى البيت الذي يسكنه وسيغادره، وربما احتاج بيته هذا إلى إصلاح أو إضافة، فيقول: دعوه؛ فإنّا سننتقل عنه إلى بيتنا الآخر، فكيف بقصر في الجنة لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

ولما عاد النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** من سفر دخل حجرة أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وكانت محاطة بالجريد، فلما سافر **صلى الله عليه وآله وسلم** بَنَتْها باللَّبِن، فلما قدم **صلى الله عليه وآله وسلم** قال لها: ما هذا البنيان؟ فقالت: أردت أن أكف أبصار الناس، فقال: إن شر ما ذهب فيه مال المسلم البنيان[٢].

إن هذا يشعرك بحال التهيؤ للنقلة، وأنه **صلى الله عليه وآله وسلم** كان ينظر إلى كل ما في هذه الحياة الدنيا على أنها فترة انتظار في الظل، ثم سيغادر شجرتها ويتركها إلى الدرجة العالية الرفيعة في الجنة.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥)؛ مختصرا.

(٢) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٣٨٧)، (٨/ ١٣٣)، و«المراسيل» لأبي داود (٤٩٤).

(صورة باب من خشب العرعر)

هذه إطلالة على البيت النبوي، ذلك البيت الذي أذهب الله عنه الرِّجْس وطهره تطهيرًا، إطلالة من كُوَّة فتحتها أُمُّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما توارد عليها السؤال من عدد من التابعين: ما كان **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** يصنع في بيته إذا كان عندك؟!

وتلقت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا السؤال بحفاوة واهتمام، وأشرعت نافذة على بيت النبوة؛ لنرى منها النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** في هذه الحالة الخاصة في بيته، ومع أهله، فإذا بها تصف حاله بهذا الوصف الوجيز البليغ قالت: «كان **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** إذا خلا في بيته ألين الناس، وأكرم الناس، كان رجلًا من رجالكم، إلا أنه كان ضحَّاكًا بسَّامًا، وما كان إلا بَشَرًا من البشر، كان يكون في مهنة[1] أهله يخصِف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ويعمل في بيته، كما يعمل أحدكم في بيته، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، ولا رأيته ضرب بيده امرأة ولا خادمًا»[2].

(١) المهنة بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا، أي: خدمة أهله. ينظر: فتح الباري (٢/ ١٦٣).

(٢) ينظر: «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٧٤)، و«مسند إسحاق» (١٧٥٠)، و«مسند أحمد» (٢٥٣٤١)، و«صحيح البخاري» (٦٧٦، ٥٣٦٣، ٦٠٣٩)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٨)، و«صحيح ابن حبان» (٥٦٧٥، ٦٤٤٠)، و«فتح الباري» لابن حجر (٢/ ١٦٣)، (١٠/ ٤٦١).

إنها باقة معطَّرة من الصفات النبوية في البيت النبوي، أحسنت أُمُّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا رصفها في هذه الجمل الوجيزة، وبهذا البيان البليغ:

لا أحسب أن أُمَّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حين قالت: «ما كان إلا بشرًا من البشر»[1]، كانت تُقرِّر بشرية النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، وأنه ليس مَلَكًا، ولكنها كانت تقرر معنىً أخصَّ من ذلك، وهو بشريته في التعامل الأُسَري، بحيث إنه **صلى الله عليه وآله وسلم** يدخل بيته على أنه الزوج، ليعيش حياة السكن الزوجي مع أهله. فتجتمع معاني العظمة المحمدية في عظمة التعامل الزوجي، وأنه **صلى الله عليه وآله وسلم** لم يكن يعيش في بيته سَمْتَه الذي يلقى به الناس، ولكن يعيش بساطة الحياة الأُسرية وعفويتها، فلا ترى فيه زوجته إلا الزوج الوادَّ الرحيم، وهو **صلى الله عليه وآله وسلم** سيد ولد آدم وإمام البشرية، والعظيم الذي لا تمتلئ الأعين من النظر إليه مهابة وإجلالًا، ولكنه يعيش في بيته ومع أهله زوجًا أولًا.

و«كان يكون في مهنة أهله»[2]؛ يَثِب إلى ذهني سؤال ثاقب يقول: وهل كانت أُمُّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تشكو كثرة العمل ومشقته، حتى تحتاج إلى عمل النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** معها في بيتها، ومعونتها وخدمتها؟!

أَمَا البيت فكان غرفة متقاربة الجُدُر، متطامنة السقف، صغيرة

(١) «صحيح ابن حبان» (٥٦٧٥).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٧٦).

المساحة، قليلة المتاع.

وأَمَّا العمل فيها فقد كان يتصرَّم الشهران بتمامهما وما أُوقِد فيه نار لطعام يُصنَع، فهل ثَمَّة عمل يحتاج إلى جهد؛ فضلًا عن أن يحتاج إلى معونة، بحيث يكون النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** في بيته مشغولًا بمهنة أهله؟!

إن الجواب عن هذا التساؤل: أن نبيَّك **صلى الله عليه وآله وسلم** ما كان يصنع ذلك لكثرة الشغل وجهد العمل، ولكن هناك معنىً أعمق، وهو المواساة والإشعار بالمشاركة التامة في الحياة الزوجية، وتحقيق أحد معاني السكن إلى الزوجة ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾.

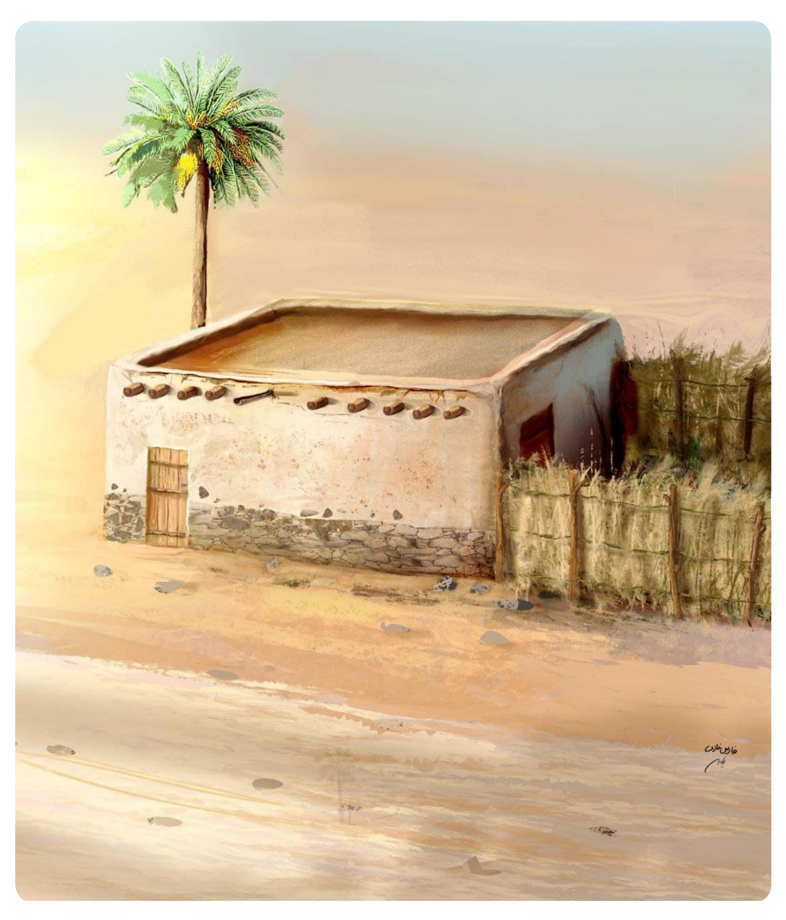
قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «بَعَثَ إِلَيْنَا آلُ أَبِي بَكْرٍ بِقَائِمَةِ شَاةٍ لَيْلًا، فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وآله وسلم** وَقَطَعْتُ، أَوْ أَمْسَكْتُ وَقَطَعَ»(١).

إن هذه الأعمال اليسيرة في المنزل تصل إلى قلب الزوجة مشفوعة بمذكَّرة تفسيرية تَضِجُّ بمعاني الحب والمودة والرحمة، وتشعر الزوجة بالدنو القريب إلى زوجها، والامتزاج الروحي والعاطفي.

إن كون الرجل في مهنة أهله بأي عمل، وعلى أي صفة؛ رسالةُ حياة تقول: هو بيتنا جميعًا، كما هي حياتنا جميعًا. وإن معاني

(١) «مسند أحمد» (٢٥٨٢٥).

الالتحام الزوجي تنسجها هذه اللمسات المُعبِّرة، فيكبر في عين زوجته بقدر تواضعه، ويَعظُم في نفسها بقدر بساطته.



(رسم تخيلي للبيت النبوي)

إننا نُطِلُّ من هذه النافذة على البيت النبوي، فنراه صغيرًا في مساحته، بسيطًا في متاعه، ولكن الخلق النبوي العظيم جعله وعاءً كبيرًا مُتْرَعًا بالأُنْس والبهجة، ترنُّ فيه الضحكات، وتشرق

البسمات، ويتدفق ينبوع غامر من السعادة والإبهاج: «كان رجلًا من رجالكم، إلا أنه كان ضحَّاكًا بسَّامًا».

ليس في بيت النبوة التواقر المتكلَّف، ولا التَّزَمُّت المقيت، ولا التَّجَهُّم العابس، ولكنه حُبور الضحك وإيناس التَّبَسُّم، ومتعة الحياة الطيبة التي تملأ البيت حبرة وسرورًا، حتى كأنما يعيش أهله في زاوية من الجنة[1].

(١) باختصار من كتاب «قصص نبوية» (ص: ١٨٩).

إلى الرفيق الأعلى

لغـة الكلام كما رأيـت على فمي خجلى ولـولا الحـب لم أتكلـم
يـا مظهـر التوحيد حسبي أنني أحـد الشـداة الهائمـين الحُـوّم
إن الـذي سـوّاك في تنزيلـه وفّـاك وصفـاً بالثنـاء الأكـرم
الكوكـب الأرضيّ حـين وطئته أمسـى حصاه يتيه فـوق الأنجم
صلـى عليـه الله نـوراً هاديـاً متعبـداً في غـاره لم يسـأم

كانت آخر نظرةٍ نظرها الصحابة إلى **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** يوم أشرق عليهم وجهه الكريم المبارك في يوم الإثنين، بعد أن غاب عنهم خمسة أيام، خيم عليهم فيها الوجوم والحزن؛ لغياب **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** عن محرابه الذي طالما وقف فيه، فقدوا تكبيره وقرآنه، وإشراق محيَّاه أيامًا، وكان الشيخ المبارك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي بهم صلاة الفجر، وهو الأسيف الذي يُقَطِّع القرآن ببكائه، فما فجأهم إلا سترُ حجرته يُرفع، وإذا هو **صلى الله عليه وآله وسلم** قائم بالباب ينظر إليهم يضحك، وهو يراهم وقوفا كما علَّمهم، خشوعًا كما أدَّبهم، فطفح السرور على وجهه الكريم، فما رأى الصحابة منظرًا أعجب إليهم من وجه **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** وهو ينظر إليهم يضحك، كأن وجهه ورقة مصحف؛ حتى كادوا أن يفتتنوا في صلاتهم، واضطربت الصفوف، فقد ظنوا أنه خرج إليهم ليُصلي

بهم، وإذا به يُشير إليهم أن أتموا صلاتكم، ثم أرخى ستر حجرته، فكانت هذه آخر نظرة نظرها إليهم، وآخر نظرة نظروها إليه[1].

فلما تعالى النهار إذا بالنبي **صلى الله عليه وآله وسلم** يُودِّع الدنيا ويذرف آخر أنفاس الحياة، ويختار اللحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وكان بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ[2] أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَات، اللهُمَّ أَعِني عَلى سَكَراتِ المَوتِ**»، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» وَمَالَتْ يَدُهُ[3].

وكان آخر ما تكلم به: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**» قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى[4]. وتوفي **صلى الله عليه وآله وسلم** وهو بين يدي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مستندًا إلى صدرها.

قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم**

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٠، ٧٥٤، ١٢٠٥، ٤٤٤٨)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٢) الركوة: إِنَاءٌ صَغيرٌ مِن جلْدٍ يُشْرَبُ فِيهِ الماءُ، يشبه الدلو الصغير. ينظر: «تاج العروس» (٣٨/ ١٧٨).

(٣) «مسند أحمد» (٢٤٣٥٦)، و«صحيح البخاري» (٤٤٤٩)، و«سنن ابن ماجه» (١٦٢٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٠٦٤، ١٠٨٦٦)، و«المستدرك» (٢/ ٤٦٥)، (٣/ ٥٦).

(٤) «صحيح مسلم» (٢١٩١).

وَرَأْسُهُ بَيْنَ سَحْرِي[١] وَنَحْرِي، قَالَتْ: «فَلَمَّا خَرَجَتْ نَفْسُهُ، لَمْ أَجِدْ رِيحًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا»[٢].

وفاضت أطهر روح في الدنيا من جسدها، وصعدت إلى بارئها راضية مرضية، وخرج أكرم إنسان على الله تعالى في هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها، ولم يترك مالاً ولا متاعاً، ولا ولداً إلا فاطمة عليها السلام، وإنما ترك هداية وإيماناً، وشريعة عامة خالدة، وميراثاً نورانياً عظيماً[٣].

وبوفاته **صلى الله عليه وآله وسلم** انقطع الوحي من السماء، وأظلم من المدينة كل شيء، وكانت المصيبة به أعظم المصائب على الأمة كما قال **صلى الله عليه وآله وسلم**: «**فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي**»[٤].

فهو الذي لم يوجد مثله يوم وُجد، ولن يُفقد مثله يوم فُقد[٥]:

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد

(١) السحر: موضع الرئة، ويراد به هنا الصدر. ينظر: «عمدة القاري» (١٨/ ٧٠).

(٢) «مسند أحمد» (٢٤٩٠٥) -والسياق له- و«صحيح البخاري» (١٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٣).

(٣) باختصار من «السيرة النبوية الصحيحة في ضوء القرآن والسنة» (٢/ ٥٩٤) للدكتور محمد أبي شهبة رحمه الله.

(٤) «سنن ابن ماجه» (١٥٩٩)، وفيه ضعف. ينظر: «خلاصة الأحكام» (٢/ ٨٩٨)، و«مصباح الزجاجة» (٢/ ٤٩-٥٠).

(٥) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦٨).

ذهب الرسول وبقيت الرسالة، وتوفي الداعي وبقيت الدعوة، ومات النبي وبقيت الأمة.

توفي **صلى الله عليه وآله وسلم** بعد أن أكمل الله به الدين وأتم النعمة ورضي الإسلام ديناً، ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾.

توفي **صلى الله عليه وآله وسلم** بعد أن بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

توفي **صلى الله عليه وآله وسلم** وترك أمةً هي خير الأمم وأوسطها، والشاهدة عليها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾.

وقدَّر الله أن يموت رسوله **صلى الله عليه وآله وسلم** في هذا الوقت، وثمة مهام لم تنجز، وملفات لم تغلق، فلم يُعيَّن **لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** خليفة، ولم يُجمع القرآن، ولم يَستقر إيمان كثير من القبائل، مع علم الرسول **صلى الله عليه وآله وسلم** بقرب أجله، وتهيئِهِ لذلك منذ أُنزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

إن **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** أعظم غيرةً على دين من أن يترك الأمة عرضة لاختلاف أو ضياع؛ **ولكن الحكمة في**

ذلك: أنه ترك هذه المهمات للجيل الذي تربى معه، وآمن برسالته، وورَّثهم جميعاً البعثَةَ بما بُعث به فقال لهم: «**إنما بعثتم ميسرين**»[1].

ولذلك كان موقفهم في هذا الامتحان الصعب الخطير، هو الدليل القاطع على نجاح هذا النبي في دعوته وتربيته، وتأهيله لمن رباهم لاستمرار مهمته.

فاختير الخليفة، واجتمعت عليه كلمة ذلك الجيل[2]، وأعيد المرتدون إلى حظيرة الإسلام بسواعد ذلك الجيل، وجمع القرآن بقراءة ذلك الجيل، فكان جمع القرآن على أيديهم من أعظم التزكية من الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

فكان عملهم من حفظ الله لكتابه، وما كان الله ليتم حفظ كتابه بهم، إلا أنهم العدول الذين ارتضاهم ورضيهم ورضي عنهم.

(١) «صحيح البخاري» (٢٢٠).

(٢) باختصار من مقال د. محمد السيد حفظه الله.

توفي **صلى الله عليه وآله وسلم** قبيل زوال الشمس، فأضجعته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا على فراشه، ووضعت رأسه على وسادة، وسُجِّي **صلى الله عليه وآله وسلم**، واضطرب الناس، وأرسلوا إلى أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ وكان في السُّنُح[1]، فجاء والناس في المسجد في حال ذهول ودهشة، فدخل بيت ابنته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وقصد إلى **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** وهو مُسجَّى على فراشه؛ فكشف عن وجهه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم أكبَّ عليه فقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، طبت حيّاً وميتاً، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مِتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً، ثم رد البرد على وجهه[2].

وخرج الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى الناس، فصعد المنبر، وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا **صلى الله عليه وآله وسلم**، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ

(١) السنح: اسم موضع كان بعوالي المدينة، فيه منازل بني الحارث بن الخزرج، ويبعد عن المسجد النبوي (١٥٠٠م) تقريباً. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٠٧).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٥٥-٦٥٦)، و«صحيح البخاري» (٣٦٦٧).

عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾»، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا»[1].

وبقي **صلى الله عليه وآله وسلم** يومه ذلك على فراشه، وشُغل الناس يومهم باختيار الخليفة وبيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البيعة الخاصة في السقيفة، ومن الغد بالبيعة العامة له في المسجد.

ثم شرعوا في تجهيز النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** تغسيلاً وتكفيناً، وكان **صلى الله عليه وآله وسلم** قد بقي على سريره من يوم الإثنين كالنائم، أعطر من العطر، وأطيب من الطيب، فهو الطيب حياً وميتاً **صلى الله عليه وآله وسلم**.

وكان تجهيزه يوم الثلاثاء وأحسبه بعد صلاة العصر، وبعد أن فرغوا من البيعة العامة بعد صلاة الظهر، فغُسِّل **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، وكان الذين تولَّوا غَسله **صلى الله عليه وآله وسلم** عليٌّ بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وأبناؤه الفضلُ وقثم، وأسامة بن زيد، وشقران مولى **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَكَانَ الْعَبَّاسُ وَالْفَضْلُ وَقُثَمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُقَلِّبُونَهُ، وَكَانَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَشُقْرَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَوْلَاهُ، هُمَا اللَّذَانِ يَصُبَّانِ الْمَاءَ عَلَيْهِ، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُغَسِّلُهُ، قَدْ أَسْنَدَهُ إِلَى صَدْرِهِ، وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ يُدَلِّكُهُ بِهِ مِنْ

(١) «صحيح البخاري» (١٢٤٢، ٤٤٥٤).

وَرَائِهِ، لَا يُفْضَى بِيَدِهِ إِلَى **رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم**، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَطْيَبَكَ حَيًّا وَمَيِّتًا[١].

ثم كُفِّنَ **رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم** فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بيضٍ سَحُولِيَّةٍ[٢]، مِنْ كُرْسُفٍ[٣]، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ، وَلَا عِمَامَةٌ[٤]، أُدرج فيها إدراجاً[٥].

فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ جهَازِهِ، وُضِعَ عَلَى سَرِيرِهِ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ دَخَلَ الرجال عَلَى **رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم** أَرْسَالًا يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، حَتَّى إِذَا فَرَغُوا أَدْخَلُوا النِّسَاءَ، حَتَّى إِذَا فَرَغُوا أَدْخَلُوا الصِّبْيَانَ، وَلَمْ يَؤُمَّ النَّاسَ عَلَى **رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم** أَحَدٌ[٦]. لكونهم جماعات متوالية وليست جماعة واحدة، وكانوا يدخلون على دفعات، وكلما دخلت دفعة صلوا ثم خرجوا من الباب الآخر للصفة.

وتكررت صلاة المسلمين عليه مرة بعد مرة، حتى صلى عليه كل الصحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم؛ حتى العبيد والإماء[٧].

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦٢)، و«مسند أحمد» (٢٣٥٧).

(٢) سحولية: نسبة إلى قرية في اليمن قريبة من مدينة إب، تسمى سحول، تنسج فيها الثياب. ينظر: «لسان العرب» (١١/ ٣٣١).

(٣) كرسف هو القطن. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ٢٩٧).

(٤) «صحيح البخاري» (١٢٦٤، ١٢٧٣، ١٣٨٧)، و«صحيح مسلم» (٩٤١).

(٥) أي لفوه بها، وطووها عليه. ينظر: «نيل الأوطار» (٤/ ٤٦).

(٦) «سنن ابن ماجه» (١٦٢٨).

(٧) «البداية والنهاية» (٥/ ٢٦٥).

فلما أرادوا دفنه اختلفوا أين يدفنونه؟ فجاء الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهم يتشاورون في ذلك، فقال لهم: سمعت من رسول الله شيئا ما نسيته، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا قَبَضَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلاَّ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ**»، ادْفِنُوهُ فِي مَوْضِعِ فِرَاشِهِ[1]، فخطوا حول فراشه، ثم حُول رسول **صلى الله عليه وآله وسلم** بالفراش ناحية البيت.

فلما أرادوا أن يحفروا **لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** بعثوا إلى أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان يضرح[2] كضريح أهل مكة، وإلى أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان هو الذي يحفر لأهل المدينة، وكان يلحد، فبعثوا إليهما رسولين وقالوا: اللهم خِرْ لرسولك، فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة فجاء به، ولم يوجد أبو عبيدة، فحفر أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القبر في موضع فراشه، فانتهى به إلى أصل الجدار، ولحد له إلى القبلة، وجعل رأس **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** مما يلي الجدار الغربي، فصار القبر في الزاوية الجنوبية الغربية من بيته.

ولم يكن بين القبر وبين الجدار القبلي (الجنوبي) إلا نحو شبر.

(١) «سنن الترمذي» (١٠١٨). وقال: «حديث غريب».

(٢) الضرح: حفر القبر بِلاَ لحد، وَسمي ضريحا لِأَنَّهُ يشق فِي الأَرْض شقا. ينظر: «غريب الحديث» لابن الجوزي (٢/ ٨).



(صورة القبر بلحده)

ويبلغ عمق القبر بدون اللحد ما بين (١٠٠ – ١٢٠) سم.

واللحد يبلغ عمقه داخل القبر بين (٢٠–٣٥) سم.

وعرض القبر (٧٠) سم تقريباً.

وهذه أبعاد تقريبية وليست توقيفية.

وكان الذي نزل معه إلى القبر العباس وعلي والفضل بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[1]، وأدخلوه القبر سلاًّ من جهة رجليه؛ لضيق المكان بين القبر والجدار، وجعلوا تحته قطيفة حمراء كان **صلى الله عليه وآله وسلم** يجلس عليها، فوضعها شُقران مولى **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** تحته، وقال: كرهت أن يلبسها أحد بعد **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**[2]، وقيل: وضعت تحته؛ لأن أرض المدينة سَبِخةٌ[3] فأرادوا أن تقيه رطوبة الأرض[4]، ثم صفوا اللَّبِن عليه، فبنى أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تسع لبنات، ثم جعلوا يُهيلون التراب بالمساحي، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما علمنا بدفن **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** حتى سمعنا صوت المساحي من آخر

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٢٢٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٧/ ٢٥٣).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦٤)، و«صحيح مسلم» (٩٦٧)، و«دلائل النبوة» (٧/ ٢٥٤)، و«التلخيص الحبير» (٢/ ٢٦٣).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (١١٧٥٣)، و«المراسيل» لأبي داود (٤١٦)، و«المفهم» (٢/ ٦٢٧).

(٤) وهذا خاص بالنبي ﷺ، ولعل ذلك لأن أجساد الأنبياء لا تبلى في قبورهم كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»، والدليل على ذلك: أن ابن عباس الذي رُوي عنه وضع القطيفة، ورد عنه النهي عن وضع شيء تحت الميت في قبره. فَقَدْ روى يَزِيد بْنُ الْأَصَمِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُجْعَلَ تَحْتَ الْمَيِّتِ ثَوْبًا فِي الْقَبْرِ». ينظر: «السنن الكبرى» للبيهقي (٦٧٢٢).

وهو رأي جمهور العلماء، لأن ذلك لم يرد فعله عن الصحابة في حياة النبي ﷺ ولا بعد وفاته، ولأن حال الميت في إقباله على الله التواضع والتذلل والافتقار، ولأن في ذلك إضاعة للمال كما قال الصديق عن الكفن: إنما هو للمهلة، أي فترة قصيرة في القبر قبل أن يبلى البدن.

الليل ليلة الأربعاء[1].

وجعلوا قبره مسنَّمًا -أي: أن وسطه أعلى من جوانبه- ووضعوا عليه من حصباء العرصة[2] الحمراء، فعن سفيان التمار: أنه رأى قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** وأبي بكر وعمر مسنماً[3]، وكان قبره **صلى الله عليه وآله وسلم** مرتفعاً عن الأرض شبراً؛ ليس عالياً ولا لاصقاً.

وعن عبد الله بن الحسين قال: «رأيت قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** مسنماً في زمن الوليد»، وفي رواية عنه: «أن القبر جثوة[4] مرتفعة مسنمة غير شديدة الارتفاع، عليها قزع[5] من خص، وتربة طيبها الله عز وجل»[6].

ورُش على قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** الماء رشاً، وكان الذي رش الماء على قبره بلال بن رباح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بقربة، بدأ من

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (١١٨٣٩)، و«مسند أحمد» (٢٤٣٣٣)، و«شرح معاني الآثار» (١/ ٥١٤). وينظر: «إتحاف الخيرة» (٢/ ٤٩٤).

(٢) العرصة الحمراء: هي عرصة بوادي العقيق، والعرصة: هي الأرض المتسعة ليس فيها بناء، وحصباء العرصة تكون في مسيل الوادي، يغسلها السيل إذا جرى، وتكون حجارتها صغيرة نظيفة. ينظر: «معجم البلدان» (٤/ ١٠١).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (١١٧٣٤)، والبخاري (١٣٩٠)، ولذا استحب جمهور العلماء تسنيم القبر على هذه الصفة.

(٤) جثوة: أي التراب المجتمع. ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ١٣٣).

(٥) أي: قطعة رقيقة متفرقة. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ٢٧١).

(٦) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٢٠-١٢١).

قبل رأسه من شقه الأيمن حتى انتهى إلى رجليه، ثم ضرب بالماء إلى الجدار، لم يقدر أن يدور من الجدار[(١)].

وقال أنس وأبو سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**مَا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ الأَيْدِي وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا**»[(٢)].

ولما دخل أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على فاطمة قالت له رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** التراب[(٣)]؟! -أي كيف طاوعتكم نفوسكم على ذلك، مع رقة قلوبكم عليه وشدة محبتكم له- فأسكت الحزن أنسًا ولم يجبها، ولو أجابها لقال: لا؛ والله ما طابت يا ابنة **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، ولن تطيب؛ ولكنها سنته وهديه، وحكم الله في خلقه!

ثم أوصى أبوبكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن يُدفن إلى جنب **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، فلما توفي حفر له، وجعلوا رأسه عند كتف النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**؛ تأدبًا مع مقام النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، وألصقوا اللحد بقبر **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** فقبر هناك[(٤)]، فكان في بيت عائشة

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٢٣٣)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٣/ ٥٧٧) من طريق الواقدي.

(٢) «سنن الترمذي» (٣٦١٨)، و«سنن ابن ماجه» (١٦٣١). قال الترمذي: «هذا حديث غريب صحيح»

(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٦٢).

(٤) «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٥٧)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٤٢٢).

رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قبر زوجها وقبر أبيها، وكانت القبور بارزة في البيت يراها من دخل إلى بيت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، وأحسبها كانت زيادة أُنسٍ لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، وكأنما تجد سلوة نفسها أن زوجها وأباها معها في بيتها، ولذلك بقيت في دارها تشاركها سكناها قبور **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** وصاحبه رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

فلما طُعن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ وحضرته الوفاة، أرسل ابنه عبد الله يستأذن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أن يُدفن مع صاحبيه، فدخل عليها عبدالله بن عمر، فوجدها تبكي فأخبرها بوصاة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، فقالت: قد كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه على نفسي، فرجع عبد الله يُبشِّر أباه ويقول له: أبشر فقد أذنت[1]، فلما توفي عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ دُفن مع صاحبيه في **بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.**

وما أجمل ما قاله عليٌّ عليه السلام بعد أن توفي عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ ووضع على سريره: وَايْمُ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَذَاكَ أَنِّي كُنْتُ أُكَثِّرُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ **صلى الله عليه وآله وسلم** يَقُولُ: «**جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَهُمَا**»[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٩٢، ٣٧٠٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٩).

وهكذا كان أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مع **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** في حياته، ومعه بعد مماته، وإن قُرْبَ قبريهما إليه بعد موتهما مُبشِّرٌ بقربهما منه في عاقبتهما ومنقلبهما، ومنازلهما في الجنة و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.



(صورة نصب اللبن على اللحد)

صفة القبور الثلاثة

اختلف المؤرخون في صفة القبور الثلاثة، وترتيب بعضها إلى بعض، مع اتفاقهم على موضع القبر النبوي، وأنه في زاوية البيت الجنوبية الغربية لاصقاً بالجدار، وذكر السمهودي سبعة أقوال في ترتيب هذه القبور[١].

وهذا الخلاف الكثير في ترتيب القبور لا يترتب عليه كبير أثر، فإن الجميع متفقون على مكان قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** ومتفقون على أن الصاحبين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا معه.

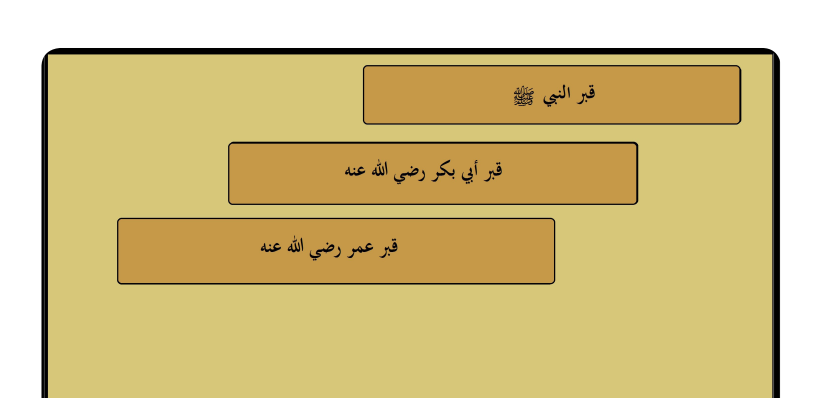
ولكن لهذا الخلاف دلالةٌ مُهِمّة جداً، وهي أن هذه القبور كانت محجوبة تماماً عن الناس، ولم يكن أحدٌ يستطيع الوصول إليها، ولا الاطلاع عليها، ولذا وقع الخلاف الكثير الذي تحسمه الرؤية البصرية لو كانت ممكنة.

وأشهر الأقوال في ترتيب القبور:

أن القبور كانت متوالية، فأبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خلف النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**؛ رأسه عند مَنْكِب النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، ثم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خلف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ رأسه عند منكِب أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

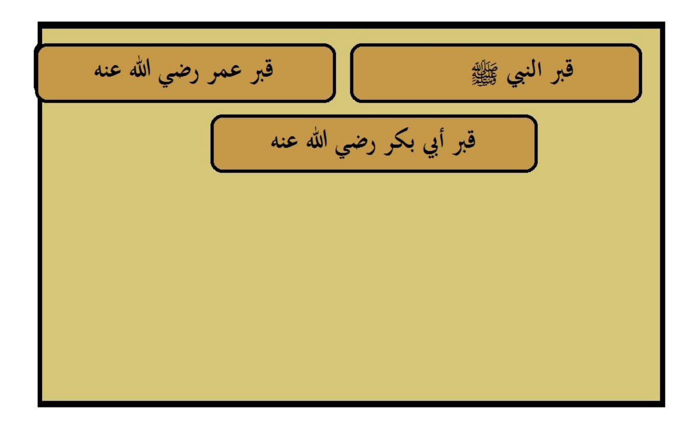
---

(١) «وفاء الوفاء» (٢/ ١١٥).



والراجح في ترتيبها- والله أعلم-:

أنّ قبر عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أسفل القبر النبوي؛ رأسه بعد قدمي النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، محاذياً لقبره **صلى الله عليه وآله وسلم**، تحت الجدار القبلي، وخلفه قبر أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رأسُه عند كتفي النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** خلفه، ورأس عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحاذي وسط أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أمامه، وعندما أرادوا دفن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حفروا آخِرَ لحْدِه تحت الجدار الشرقي لقدميه؛ لأنه كان طويلاً.



والذي يرجح ذلك:

١ - أنها الصِّفةُ التي رواها القاسم بن محمد حين كَشَفت له عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الستر؛ قال: «فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ **صلى الله عليه وآله وسلم** مُقَدَّمًا، وَأَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأْسُهُ بَيْنَ كَتِفَي النَّبِيِّ **صلى الله عليه وآله وسلم**، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأْسُهُ عِنْدَ رِجْلَي النَّبِيِّ **صلى الله عليه وآله وسلم**»[(١)].

٢- أن صف القبور خلف بعضها سيضيق الحجرة الصغيرة التي كانت عائشة تقضي فيها بقية حياتها.

٣- أن الحائط الشرقي للحجرة لما سقط وحُفِرَ أساسه بدت لهم قدم ففزعوا أن تكون قدم رسول الله **صلى الله عليه وآله وسلم** فقال عروة بن الزبير لعمر بن عبد العزيز: هذه قدم جدّك عمر

(١) «سنن أبي داود» (٣٢٢٠)، و«المستدرك على الصحيحين» (١/ ٣٦٩)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٤/ ٤).

بن الخطاب[١]، وذلك أنه كان طويلاً فحفروا له في أساس الجدار الشرقي، وهذا لا يتصور إلا إذا دفن تحت قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** محاذياً له، أما لو دفن وراء أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فلن يحتاجوا لحفرٍ تحت أساس الجدار الشرقي؛ فإن طول الحجرة يتَّسع لهم متجاورين، ولا يتسع إذا كانوا في صف واحد كما صنع بعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**.

٤- أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، فَلَأُوثِرَنَّهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي»، وهذا يعني أنها تعني بقعة معيَّنة في الحجرة، وهي المكان الذي يجعلها بين زوجها وأبيها، وهو المكان الذي دفن فيه عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وإلا فالحجرة تتسع بقيتها لأربعة قبور، وليس لقبر واحد.

ولذا لما حضرتها الوفاة أوصت أن تُدفَن في البقيع، وألا تُدْفَن معهم، وقالت: «لا أُزكَّى به أبداً»[٢]؛ مما يدل على بقاء مساحة في البيت، وهو المكان الذي كانت تعيش فيه بقية حياتها.

فلما دُفن عمر- وكان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مهيبًا حيًّا وميِّتًا- وضَعَت عائشة حاجزًا بين القبور وبقية البيت الذي تسكنه، وقالت: «كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي دُفِنَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وآله وسلم** وَأَبِي فَأَضَعُ

(١) «صحيح البخاري» (٢/ ١٠٣)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٦/ ٥٧).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٩١). وقولها لا أزكى: أَيْ لاَ يُثْنَى عَلَيَّ بِسَبَبِهِ وَيُجْعَلُ لِي بِذَلِكَ مَزِيَّةٌ وَفَضْلٌ. ينظر: «فتح الباري» (٣/ ٢٥٨).

ثَوْبِي، وَأَقُولُ إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمْ فَوَاللَّهِ مَا دَخَلْتُهُ إِلَّا وَأَنَا مَشْدُودَةٌ عَلَيَّ ثِيَابِي، حَيَاءً مِنْ عُمَر»[(١)].

ويظهر أن الحاجز الذي وضعته عائشة كان جداراً قصيراً وأعلاه ستر تَحجُب به القبور عن البيت، يدل على ذلك خبر القاسم بن محمد بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم قال: «دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمَّاهُ، اكْشِفِي لِي عَنْ قَبْرِ النَّبِيِّ **صلى الله عليه وآله وسلم** وَصَاحِبَيْهِ، فَكَشَفَتْ لِي عَنْ ثَلَاثَةِ قُبُورٍ، لَا مُشْرِفَةٍ وَلَا لَاطِئَةٍ، مَبْطُوحَةٍ بِبَطْحَاءِ الْعَرْصَةِ الْحَمْرَاءِ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ **صلى الله عليه وآله وسلم** مُقَدَّمًا، وَأَبَا بَكْرٍ رَأْسُهُ بَيْنَ كَتِفَيِ النَّبِيِّ **صلى الله عليه وآله وسلم**، وَعُمَرُ رَأْسُهُ عِنْدَ رِجْلَيِ النَّبِيِّ **صلى الله عليه وآله وسلم**»[(٢)]، فقوله: «كشَفَتْ»، يدل على أن ذلك كان ستراً يكشف.

ويظهر أن هذه القبور أخذت نحو ثلث مساحة البيت طولاً، وقضت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقية عمرها في بقية البيت الذي عاشت فيه مع **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، فلما حضرتها الوفاة أوصت إلى عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا تدفني معهم، وادفني مع صواحبي بالبقيع؛ لا أُزكَّى به أبدًا»[(٣)].

وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وادفني مع صواحبي بالبقيع»، أرادت بذلك بقية نساء النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** المدفونات في البقيع.

(١) «مسند أحمد» (٢٥٦٦٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وقولها: «لا أُزَكَّى به أبدًا» أي: لا يُثنى عَليَّ بسببه، قال ابن بطال: فيه معنى التواضع، كرهت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أن يقال: إنها مدفونة مع النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، فيكون في ذلك تعظيمًا لها[١].



(رسم تخيلي للقبور الثلاثة داخل البيت النبوي، وهي مسنمة وعليها نثار الحصباء)

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٣/ ٣٨٠)، و«عمدة القاري» (٨/ ٢٢٨).

بعد وفاة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقيت الحجرة النبوية[١] خزانة القبور الثلاثة، وحولها حُجُرات أمهات المؤمنين، وكانت هذه الحجرات قد خلت من أمهات المؤمنين، وبقيت فارغة، وآل مُلْكُها إلى ورثتهن، فكان الناس إذا ضاق عليهم المسجد يوم الجمعة دخلوا في هذه الحجرات الخالية يُصلُّون فيها، فلما ولي الوليد بن عبد الملك اشترى هذه الحجرات ممن آلت إليه من ورثتهن، وأرغبهم في أثمانها، ثم كتب إلى عمر بن عبد العزيز أميره على المدينة يأمره بهدم الحجرات وإدخالها توسعةً في المسجد، فجاء عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلاوى عمر بن عبد العزيز أشد الملاواة ألا يُدخل القبر في المسجد؛ لأن النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** حذَّر أشد التحذير من اتخاذ القبور مساجد في أحاديث كثيرة؛ منها:

قوله **صلى الله عليه وآله وسلم**: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا**»، قَالَتْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ، غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[٢].

(١) سبق بيان الفرق بين الحجرة والبيت، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفن داخل البيت، ولكن بعد أن أزيلت الحجرات كلها بما فيها حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأدخلت في المسجد، وبقي البيت الذي فيه القبور، صار لفظ الحجرة يطلق على الغرفة التي فيها القبور، والتي هي البيت النبوي، ولعل ذلك لأن عمر بن عبد العزيز رحمه الله بنى جداراً مخمَّساً حاجزاً للبيت، فاشتهرت الحجرة بأنها مكان القبور الثلاثة.

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٣٠)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[1].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ مِن شِرَارِ النَّاسِ مَن تُدرِكُهُمُ السَّاعَةُ وهُمْ أَحياءٌ، والَّذين يتَّخِذونَ القُبورَ مَساجَدَ»[2].

ولمَّا ذَكَرت أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا مَارِيَةُ، فَذَكَرَتْ لَهُ مَا رَأَتْ فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»[3].

فقال عمر بن عبد العزيز لعروة: قد أمر بذلك أمير المؤمنين ولابدّ من إنفاذ أمره.

وما كان عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- يجهلُ نهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصريح عن ذلك، فإنه كما كان والي المدينة، فهو أيضاً من علمائها، وتلميذ علمائها السابقين، ولكنه أراد أن يُنَفِّذ أمر الوليد بن عبد الملك بطريقة يراعي فيها النهي

(١) «صحيح مسلم» (٥٣٢).

(٢) «مسند أحمد» (٣٨٤٤)، و«صحيح البخاري» (٧٠٦٧)، و«مسند البزار» (١٧٢٤، ١٧٨١).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٣٤)، و«صحيح مسلم» (٥٢٨).

النبوي، ويرعى حُرمة القبر وصيانته، وبخاصة أن له مكانته عند الوليد، فهو ابن عمه وصهره، ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره، ولذا تولى هو إنفاذ الأمر مع مراعاة ما يجب للقبر النبوي، وأحسبه لو رفض ذلك كله لعزله الوليد وولّى غيره ممن ينفذ الأمر ولا يراعي ما راعاه، ولا يصون ما صانه، وهذا من فقهه رحمه الله، ومراعاته المقاصد، ودفع أكبر المفاسد ولو وقع ما هو دونها.

وإني لأتخيل عمر بن عبد العزيز لو رفض ذلك فعزله الوليد وولَّى أميراً آخر من غير بني أمية، لا يرقب إلا أميره، ولا يرعى إلا مكانته، ثم هدم الحجرات، وأبقى الحجرة النبوية على حالها داخل المسجد، والتي ليس لها إلا باب من خشب العرعر سرعان ما يُقْتلع، وجدار من طين سرعان ما يهدم، ثم يبرز القبر ويقع المحظور من الغلو فيه والصلاة إليه، وغير ذلك مما يستجر الشيطان الناس إليه ويزينه لهم، ولو برز القبر للناس لتقاتلوا عليه بالسيوف.

فكان في تصرف عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- الغاية في البصيرة، وحسن التصرف، وإصابة الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ونُفِّذ أمر الوليد بن عبد الملك، فهُدمت حجرات أمهات المؤمنين وبيوتهن إلا بيت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وعنهن، ورأى أهل المدينة المعاول وهي تنقض حجرات **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيرًا، والتي طالما عمرها

صلى الله عليه وآله وسلم في حياته، وتردد بين بيوتاتها، وتنزل عليه جبرائيل عليه السلام في حجراتها، فكم تعطرت بأنفاسه، وسَبَّح حَجَرُها ومَدَرُها مع تلاوته وصلواته، واكتفى بها من الدنيا فكفته، وأوى إليها فآوته، وكم تساءلتُ: ما الذي كان يشعر به من رآها، وكيف كانت مشاعر من دخلها، وكل شيء فيها يقول: كان رسول الله هنا!؟

ولذا كانت هذه الحجرات أمام أهل المدينة كأنها بقية حياته **صلى الله عليه وآله وسلم**، فشعروا بالفجيعة وهم يفقدون بقية آثار النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، وكأنما تجددت لهم المصيبة بفقده، فلم يُرَ في المدينة أكثر باكيًا من ذلك اليوم، وكأنه يوم وفاته **صلى الله عليه وآله وسلم**، وكانوا يقولون: ليتها تُركت حتى يقدم القادم على المدينة فيرى كيف كان **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** يعيش، وأين كان يسكن؛ لتكون هذه الحجرات موعظة باقية بعد **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** تُري من لم يدركه من أمته أين كان يعيش **صلى الله عليه وآله وسلم**.

قال عطاء الخراساني: سمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، فينشأ ناشئ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق، فيرى ما اكتفى به **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس من التكاثر والتفاخر فيها!

وقال عمر بن أنس: لقد رأيت في مجلسٍ فيه نفر من أبناء أصحاب **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت، وإنهم ليبكون حتى أخضل لحاهم الدمع!

وقال يومئذ أبو أمامة: ليتها تُركت فلم تُهدَم؛ حتى يقصر الناس عن البناء، ويرون ما رضي الله لرسوله **صلى الله عليه وآله وسلم** ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[1].

ولكن أُنفذ الأمر، وهُدمت البيوت والحجرات، وأُزيلت حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وبقي بيتها الذي دُفن فيه **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** وصاحباه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم وهى الحائط الشرقي للحجرة النبوية وانهار في الليل، ولعلّ ذلك بسبب أعمال الهدم والبناء حوله، فأمر عمر بن عبد العزيز أن يُنقض الجدار المنهار ويستر مكانه، وأن يُحفر من أساسه ليُبنى الجدار من جديد.

فحُفِرَ الأساس، وبينما العامل يحفر إذ خرج فزعًا، فقال له عمر: ما لك؟ قال: بدت لي قدم، ففزعوا! يخشون أنها قدم **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، فقال عروة بن الزبير: لا تراع؛ هذه قدم جَدِّك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنه كان طويلًا! فحفروا لقدمه

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٣٨٧-٣٨٨)، و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٦/ ٢٨٣-٢٨٥).

تحت الجدار، فبني هذا الجدار، وصار بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بارزاً داخل المسجد، وأُغلق بابه وفُرَجَه، فصار مصمتا لا منفذ فيه، ثم أمر عمر ببناء حائطٍ يحيط بالبيت، لعزل القبور عن المسجد؛ خوفاً مما حذر منه النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** من جعل القبور مساجد، فبَنى الحائط من حجارة سوداء، ولم يجعله مربعًا، وإنما جعله مخمَّسًا، فهو يُحيط بالبيت النبوي من جهاته الغربية والجنوبية والشرقية، أما الجهة الشمالية فأُخْرِج من ركنيها جداران منحرفان يلتقيان في الوسط على شكل مثلث، فيكون مجموع الحيطان خمسة، وهي جُدُر مصمتة ليس لها باب ولا فُرَج.

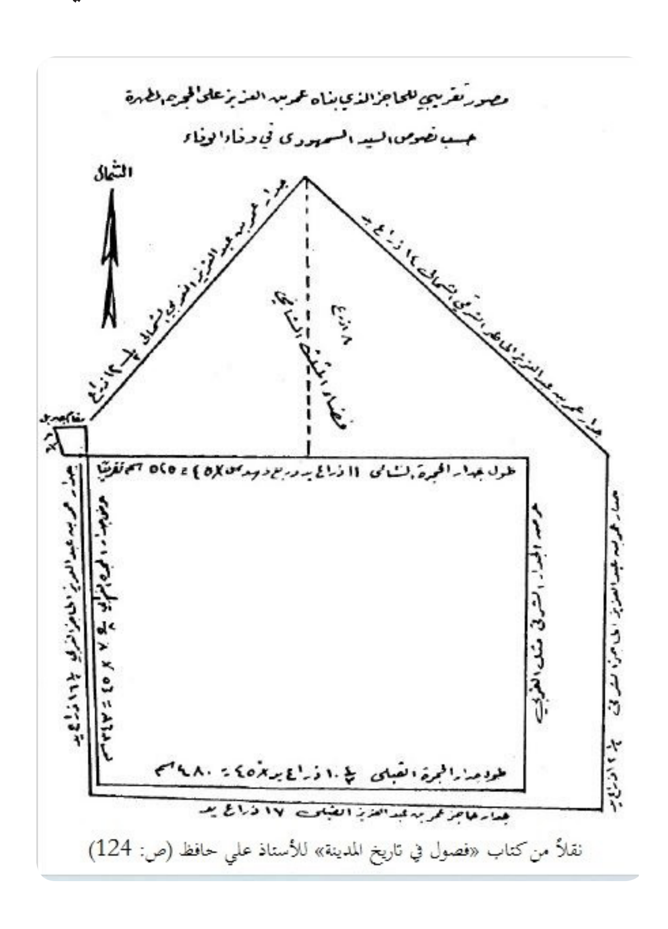


(رسم تخيلي للجدار المخمس وبداخله البيت النبوي)

وقد فعلوا ذلك لأمرين:

الأول: أنهم لم يريدوا أن تُشبه الحجرةُ النبوية الكعبةَ المشرفة فيكون ذلك ذريعة إلى الطواف بها.

الثاني: أن الجهة الشمالية هي التي يستقبلها مستقبل القبلة إذا كانت أمامه، فأرادوا ألا تكون الجهة الشمالية قبلة فيُصلي الناس إليها، بل جعلوا لها جدارين منحرفين حتى لا تُستقبل في الصلاة.



نقلاً من كتاب «فصول في تاريخ المدينة» للأستاذ علي حافظ (ص: 124)

ورفعت هذه الجدر فكان ارتفاعها قرابة ثلاثة عشر ذراعا[(١)] (٦ أمتار تقريبا).

وبذا صار حول القبر حائطان:

جدار البيت المربع.

وجدار عمر بن عبد العزيز المخمَّس المرتفع.

وفوق القبر سقفان، سقف الحجرة، وسقف المسجد، وبذلك حصل العزل التام المحكم للقبور عن المسجد.

وبقيت على هذا الحال داخل المسجد النبوي، وكان البناء متيناً محكماً استمر صامداً ثمانمائة سنة، حتى أعيد بناء ما تداعى منه عام (٨٨١هـ).

ولم يرد عن أحد من علماء المدينة أو من بعدهم أنه أنكر على عمر بن عبد العزيز بناءه هذا الجدار على الحجرة النبوية، مع ورود النهي الصريح عن البناء على القبور وتجصيصها كما في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ**»[(٢)]، وهذا من شفوق فقهه وفقه علماء وقته، حيث فقهوا من هذا النهي عن البناء أنه لما في ذلك من الغلو في القبور وتعظيمها، أما البناء على الحجرة النبوية فهو لحمايتها من الغلو فيها، أو اقتحامها وإبراز

(١) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٢٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٧٠).

القبر وجعله مسجداً، ولذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد أن روت نهيه **صلى الله عليه وآله وسلم** عن بناء المساجد على القبور: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: «وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ، غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[١].

فالبناء على سائر القبور غلوٌّ فيها، والبناء على القبر النبوي حماية له من الغلو فيه، وفي هذا تجاوز لظاهرية النص إلى مقصده وحكمته، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين.

وفي القرن السادس كُسي الجدار المخمس ديباجاً أبيض، وكان الذي كساها الحسن بن أبي الهيجاء بعد استئذان الخليفة المستضيء[٢]، ثم صارت تُكسَى على فترات متفاوتة، وكانت الكسوة ترسل من مصر، ثم من إستانبول، أما الكسوة الموجودة الآن فإنها صنعت في مصنع كسوة الكعبة في مكة المكرمة، ووضعت في عام (١٣٨٩هـ) بفتوى ومسعى من سماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح[٣] إمام المسجد النبوي رحمه الله، ثم جددت عام (١٤٠٦هـ).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) كانت خلافة المستضيء بين عامي (٥٦٥-٥٧٤هـ)

(٣) هو الشيخ عبد العزيز بن صالح الصالح، إمام الحرم النبوي، وقاضي المدينة المنورة لمدة خمسين سنة، وكان له وقار العلماء وهيبة الأمراء، وكان المنظور إليه في المدينة إمامةً ومكانةً، ومقصداً في قضاء الحاجات، وله في تلاوة القرآن إذا ترسل بها نغمة عذبة وأداء رائق، توفي رحمه الله عام (١٤١٥هـ).



(صورة لكسوة الحجرة النبوية)

وأما سياج المقصورة حول الجدار المخَمَّس، فقد أمر به السلطان الظاهر بيبرس البندقداري لما قدم المدينة سنة (٦٦٤هـ)، ولعله رأى الناس حول جدران الحجرة يتصرَّفون تصرفًا لا يليق بالأدب مع المقام النبوي، فصنع حولها سياجًا من الخشب، وبقي هذا السياج حتى احترق مع حريق المسجد سنة (٨٨٦هـ)، ثم جُعلت المقصورة من الحديد والنحاس بأمر الملك الأشرف قايتباي سنة (٨٩٠هـ)؛ وهي المقصورة الموجودة الآن لم تُغيَّر، وإنما يُجدَّد طلاؤها كلَّما تَغيَّر لونه.

ولذلك فالواقف تجاه القبر الشريف يحجبه عنه ثلاثة حواجز:

جدار بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ثم جدار عمر بن عبد العزيز بأستاره.

ثم سياج المقصورة.

وإذا نظر من خلال السياج، فإنه لا يرى إلا الستر الذي على الجدار المخمس المصمت، وكل ذلك حمايةً للقبر النبوي المقدَّس، واستجابةً من الله تعالى لدعاء نبيه **صلى الله عليه وآله وسلم** يوم قال: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[1]، وقال: ابن القيم في نونيته[2]:

ودعا بأن لا يَجعل القبر الذي ... قد ضمه وثنا من الأوثان

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

(١) «موطأ» (٥٧٠).

(٢) يراجع شرح الشيخ هراس لنونية ابن القيم (ص:٥٨٣-٥٨٥).

بعد بناء عمر بن عبد العزيز لجدار البيت النبوي الشرقي، وجعله مصمتاً، ثم بنائه للجدار المخمس حول الحجرة وجعله مصمتاً أيضاً بلا باب ولا فُرَج، بقيت القبور في ستر وصيانة، بعيدة عن أيدي الناس وأبصارهم، ولم ير القبور ومساحة البيت أحد بعد ذلك على تعاقب القرون، حتى كان القرن التاسع سنة (٨٨١هـ)، فهدمت بعض حيطان الجدار المخمس، وكذا بعض جدران الحجرة، وكان من التوافق والتوفيق أن ذلك كان في حياة مؤرخ المدينة السمهودي وحضوره، فوصف ذلك كله، **وهو ما نذكره عنه مختصراً:**

قال رحمه الله: وكان سبب ذلك أنه جرى العمل لإصلاحات في بناء المسجد النبوي، وكان ذلك في أول شعبان سنة (٨٨١هـ)، فاتضح لهم أثناء العمل وجود شقوق في الجدار المخمس في جهته الشمالية، ومن خلال معالجة هذا الشق تبين وجود شق في جدار الحجرة الداخلي المربع بين الحائط الشرقي والشمالي، فهُدم المحل الشريف من الجهة الشرقية والشمالية لوجود الشقوق بها.

فلما هدموا الجدار الشمالي للحجرة شرعوا في تنظيف أرضها من الردم المتراكم جراء انهيار السقف، وما انهار عليه من سقف المسجد النبوي بسبب الحريق الذي وقع قديماً في المسجد، وكانت الأنقاض في أرض الحجرة نحو القامة، وفيها

أخشاب أصابها الحريق فاحترق أكثرها، وكان هذا الركام كله داخل الحجرة النبوية فوق القبور الشريفة، فكان فيما جرى سبب لتنظيف الحجرة، ورفع هذه الأنقاض، وإعادتها كما كانت أول مرة.

فاشتغلوا بإزالة الركام، وتزاحم الناس عليه حتى بلغوا في تنظيفه الأرض القديمة، بحيث ظهر تحصيب ذلك المحل بحصباء تشبه ما في المسجد، غير أنها قد اسودت من نداوة الأرض.

قال السمهودي: فلما كان صبيحة الخامس والعشرين من الشهر المذكور، بعث إليّ متوَلِّي العمارة لأتبرك بمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها، وصار قائل يقول: ظهر القبر الشريف، وقائل يقول: لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثرًا، فحثّني داعي الشوق وغلبة الوجد، واستحضرت ما وقع لبعض السلف من سؤاله لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أن تريه القبور الشريفة، وذِكْرَهم ذرع الحجرة الشريفة وكيفيتها كما تقدم، فعزمت على الإقدام، وتمثلت بقول بعضهم:

ولو قيل للمجنون أرضٌ أصابها ... غبارُ ثرى ليلى لجدّ وأسرعا

لعلّ يرى شيئا له نسبة بها ... يعلّل قلباً كاد أن يتصدعا

ودخَلتُ من مؤَخَّر الحجرة، ولم أتجاوز ذلك المحل، فشممت رائحة ما شممت في عمري رائحة أطيب منها، فتأملت الحجرة الشريفة فإذا هي أرض مستوية، وتناولت من ترابها بيدي

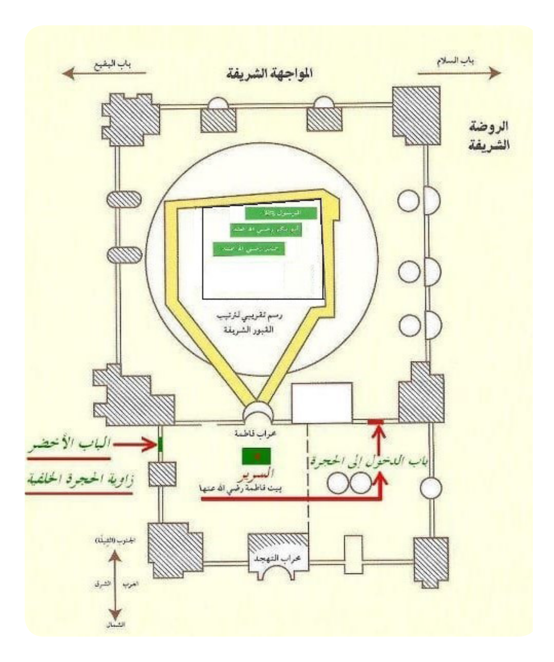
فإذا فيه نداوة، وحصباء كالحصباء المتقدم وصفها بين الجدارين، يظهر عند فحصه بالأصابع، ولم أجد للقبور الشريفة أثراً.

وقد تأملت التفاوت بين أرض الحجرة الشريفة وبين أرض الفضاء الخارج بين الجدار الشامي الداخل وزاوية الجدار الخارج، فوجدت أرض الحجرة أنزل منه بنحو ذراع ونصف، وتقدم أن أرض الفضاء المذكور أخفض مما حول الحجرة من المسجد بذراع وثلث، فيكون التفاوت بين داخل أرض الحجرة وأرض المسجد نحو ثلاثة أذرع.

وتركوا في نحو وسط هذا الجدار خوخة، فلما لم يبق إلا هي، أدخلوا منها شيئاً كثيراً من الحصباء، جاؤوا بها من عرصة العقيق، من جنس حصباء المسجد بعد غسلها بالماء ليضعوها على القبور الشريفة، وكنت قد ذكرت لبعضهم أن موضع القبر الشريف النبوي مما يلي الجدار القبلي.

ولما دخلوا من الخوخة المذكورة لوضع الحصباء على القبور الشريفة، فوضعوا ذلك على المحل الشريف المذكور كما وصفت، وأخذوا بالهيئة المشهورة في كيفية القبور الشريفة؛ من أن رأس أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خلف منكِب النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، ورأس عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خلف منكب أبي بكر، فجعلها مسنّمة، وذلك بعد أن أكثروا في الموضع المذكور من البخور بالعود والعنبر وغيرهما من أنواع الروائح، وعَرْفُ المحل الشريف على ذلك كله راجح فائح.





(مخطط المقصورة والحجرة الشريفة)

ثم سدوا الخوخة المذكورة، وأحكموا بناءها كبقية الجدار، وكان الفراغ من ذلك وختم بناء الجدار الظاهر في يوم الخميس المبارك سابع شوال من السنة المذكورة[1]. انتهى مختصراً.

ومما تقدم يتضح أن القبور في البيت النبوي كانت على الصفة المروية ثلاثة قبور لا يعلوها إلا نبيث[2] القبر، ولم تكن مشرفة ولا لاطئة، نثر عليها من حصباء العقيق، وأنها مع تقادم الزمن استوت بالأرض، وليس عليها ما يميزها، ولذا أعادوا وضعها كما

(١) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٦٩-١٧٤).

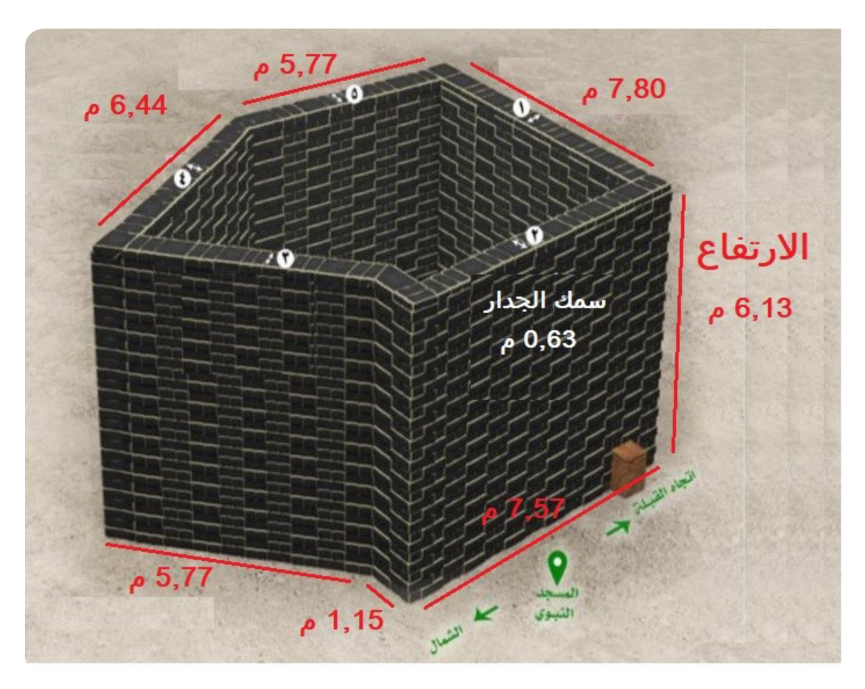
(٢) أي تراب القبر الذي أخرج حين حفره. ينظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ٣٧٩).

كانت، واجتهدوا في ترتيب القبور على الترتيب المشهور، بأن القبور الثلاثة متوالية خلف بعضها، ورأس أبي بكر عند منكب النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** خلفه، ورأس عمر عند منكب أبي بكر خلفه، اجتهاداً منهم في اختيار هذا الترتيب، وجعلوها مسنمة مرتفعة شبراً كما ورد في حالها أول مرة، ونثر عليها حصباء جديدة من وادي العقيق.

وأن الحجرة النبوية كانت فارغة من المتاع، ومتواضعة في البناء، ثم أعيدت كما كانت متواضعة بسيطة، ليس فيها تشييد ولا تزويق، ولا خزائن ولا أغاليق، ولا أحراز ولا أسرار، وكان من صنع الله وتوفيقه أن يكون ذلك بحضرة عالمٍ مؤرخٍ راصدٍ، حضر حين فتحت جدرانها، فرآها ووصفها كما ورد في وصفها، وشهدها وشهد عليها حين أغلقت وأصمتت، وأنها أعيدت كما كانت بتواضعها وبساطتها، وشهادتها على حياة من سكنها **صلى الله عليه وآله وسلم**.

وأنه ليس في داخلها ما يمكن أن يكون سراً أو مفاجأة أو كشفاً، وأنها وجدت كما وصفت، وبقيت كما كانت منذ ذلك اليوم وإلى هذا اليوم.

حفظها الله وصانها، وشرَّفها وكرَّمها.



(مقاسات الجدار المخمس، من كتاب: «المدينة المنورة» لفضيلة الشيخ عبد المحسن القاسم)

لم تكن على الحجرة المطهرة قبة، وكان في سطح المسجد على ما يوازي الحجرة حظير من الآجر بمقدار نصف قامة، تمييزًا للحجرة عن بقية سطح المسجد.

وأول من أحدث على الحجرة الشريفة قبة هو السلطان قلاوون الصالحي، فقد عملها سنة (٦٧٨هـ) مربعة من أسفلها، مثمنة من أعلاها، بأخشاب أقيمت على رؤوس السواري المحيطة بالحجرة، وسَمَّر عليها ألواحًا من الخشب، وصفحها بألواح الرصاص، وجعل محل حظير الآجر حظيرة من خشب، وجددت القبة زمن الناصر حسن بن محمد قلاوون.

ثم اختلت ألواح الرصاص عن موضعها، وجددت وأحكمت أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد سنة (٧٦٥هـ)، وحصل بها خلل، وأصلحت زمن السلطان قايتباي سنة (٨٨١هـ).

وقد احترقت المقصورة والقبة في حريق المسجد النبوي الثاني سنة (٨٨٦هـ)، وفي عهد السلطان قايتباي سنة (٨٨٧هـ) جددت القبة، وأسست لها دعائم عظيمة في أرض المسجد النبوي، وبنيت بالآجر بارتفاع مُتَناهٍ، وقد حصل بين الجدار الشرقي للمسجد وبين الدعائم المحدثة ضيق، فهدم جدار المسجد الشرقي، وزحف به إلى البلاط ناحية مصلى الجنائز بمقدار ذراع

ونصف، ولم يسقط شيء من حريق القبة على الحجرة الشريفة، فقد كانت القبة الصغرى التي بناها قايتباي على الحجرة والقبور الشريفة مانعة لذلك.

وبعد ما تم بناء القبة بالصورة الموضحة، تشققت من أعاليها، ولما لم يُجْدِ الترميم فيها، أمر السلطان قايتباى بهدم أعاليها، وأعيدت محكمة البناء بالجبس الأبيض، فتمت محكمة متقنة سنة (٨٩٢هـ).

وبعد عدة قرون حدثت شقوق في أعلى القبة في زمن السلطان محمود بن عبد الحميد العثماني، فأصدر أمره بتجديدها، فهدموا أعاليها، وأعادوها في غاية الإحكام والإتقان، وكان ذلك سنة (١٢٣٣هـ)، ولا تزال على تلك الحال حتى الآن.

في سنة (١٢٥٣هـ) صدر أمر السلطان عبد الحميد العثماني بصبغ القبة المذكورة باللون الأخضر، وهو أول من صبغ القبة بالأخضر، ثم لم يزل يجدد صبغها بالأخضر كلما احتاجت لذلك إلى يومنا هذا.

وسميت بالقبة الخضراء بعد صبغها بالأخضر، وكانت تعرف بـ: البيضاء، والفيحاء، والزرقاء[١].

وبقيت القبة الخضراء مشرقة بجلال وهيبة وبهاء، مبشرةً مَن أقبل بقرب الوصول وطيب اللقاء، فهي كحل العيون قبل النظر.

---

(١) باختصار من كتاب «فصول في تاريخ المدينة»، للأستاذ علي حافظ رحمه الله (ص:١٢٧-١٢٩).

وليس في هذه القبة البهية تزويق ولا تنميق، ولا ضخامة بناء أو تهويل صنعة، بل هي بسيطة في شكلها، مريحة للبصر في رؤيتها، وفي حالها ومكانها وجلالها ما يغني عن التزويق والتهويل.

ولا أعلم أن أحداً من العلماء الذين شهدوا بناء القبة، ولا من جاء بعدهم على تعاقب مشاهدتها من أهل العلم من أنحاء العالم الإسلامي ورؤيتهم لها في المواسم أنكر ذلك، إلا كلمة مجملة ذكرها ابن تيمية(١)، وأول من رأيت له إنكاراً لها هو الصنعاني في رسالته «تطهير الاعتقاد»، ثم تبعه بعض أهل العلم في الأعصار المتأخرة.

ولعل سبب إقرار العلماء لها: أن القبر النبوي كان في حاله الأول تحت سقف بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فدفن **صلى الله عليه وآله وسلم** تحت سقف بيته، ولذا فَوضْعُ سقفٍ فوق سقفه كوضع جدار خلف جداره(٢).

ويكون مستثنى بهذا الاعتبار، وعليه فلا يصح أن يقاس عليه غيره من القبور، فترفع فوقها القباب، وتشاد حولها الأبنية؛ لورود النهي الصحيح الصريح عن ذلك، كما في حديث أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم؟ أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا**

---

(١) قال رحمه الله: ثم بعد ذلك بسنين متعددة بنيت القبة على السقف، وأنكره من كرهه. ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٩٨).

(٢) وقد أفدت ذلك من مذاكرة مع شيخي عبد العزيز القارئ حفظه الله.

إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»[١].

فإذا كان ارتفاع القبر وإشرافه يُنهى عنه، ويؤمر بتسويته حتى يكون متطامناً إلى الأرض، فكيف بالبناء عليه وتسقيفه أو تقبيبه؟!

وكذا نهيه **صلى الله عليه وآله وسلم** في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ **صلى الله عليه وآله وسلم** أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ»[٢].

فالنهي عن البناء عليه شامل لإحاطته وتسقيفه وتقبيبه.

كما أن القبر أول منازل الآخرة، وسيبعث الناس من قبورهم حفاة عراة بُهما[٣]، فينبغي أن تكون حال المسلم في قبره معلنة بافتقاره وفقره، وتواضعه وذُلِّه لربه الذي هو قادم إليه، والبناء والتشييد على القبور ينافي هذه الحال.

كما أن البناء ورفع القباب على القبور وسيلة للغُلوّ في صاحب القبر إذا كان من العلماء أو العُبَّاد، واتخاذ قبره مزاراً معتاداً، يلتبس على الجهال حاله، فيقعون في كثير من البدع الفاشية عند القبور، والمخالفة لسنن الزيارة الشرعية.

ولذا فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يميِّزوا قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** بشيء عندما دفنوه، فقد رفعوه عن الأرض شبراً، ونثروا عليه شيئًا من حصباء تمسك التراب، فلا ينتثر ويتفرق.

(١) «صحيح مسلم» (٩٦٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٧٠).

(٣) بهما: أي ليس معهم شيء. ينظر: «مختار الصحاح» (ص:٤١).

وهذه هي صفة سائر القبور في البقيع وغيره، بحيث لو فرض دفنه **صلى الله عليه وآله وسلم** في البقيع لما تميز قبره في مظهره بشيء عن سائر القبور حوله.



(القبة الخضراء)

نظراً لإحكام الإغلاق للحجرة النبوية بالجدران المصمتة، وجهل كثير من الناس بما وراء السياج، وغموضه في أذهان الجهال وكثير من العامة، فقد سهل انتشار غرائب الأخبار، والتكثر بالدعاوى ممن أولعوا بالغرائب، وراجت عليهم الأكاذيب، فانتشرت الحكايات والأخبار المكذوبة، **ومن ذلك:**

أولاً: الصور المتداولة للقبر النبوي على مواقع التواصل الاجتماعي، وعلى الشبكة العنكبوتية كُلُّها غير صحيحة، وليس هناك صورة للقبر النبوي، ولم يُصوَّر طوال تاريخه، وكل صورة يقال إنها صورة القبر النبوي، فهي كذب ولا تصح بحال! وإنما هي صور لمزارات وأضرحة مبتدعة مفرقة في أنحاء العالم الإسلامي، وصورتها ليست على الصفة المروية عن قبره **صلى الله عليه وآله وسلم**.

ثانياً: دعوى دخول الحجرة النبوية ورؤية القبر النبوي؛ فكل من ادَّعى أنه دخل حجرة النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** ورأى قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** وصاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أو أنه أطلَّ من فُرْجة فرأى القبر أو القبور؛ فكل هذه دعاوى زائفة، وأخبار كاذبة، فإن الحجرة النبوية التي فيها القبور مصمتة البناء؛ فبيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الذي دُفن فيه النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** وصاحباه قد أُغلق تمامًا، فليس له باب ولا نوافذ، ثم بناء عمر بن عبد العزيز-

وهو الجدار المخمَّس حوله- بلا أبواب ولا نوافذ، وأما السِّياج الموجود حولها فهو مقصورة من الحديد تُطيف بالبناء الحجري المخمَّس المصمت، والداخل إلى هذه المقصورة لا يتجاوزها إلى البيت النبوي، ولا إلى حجرة القبور، وإنما يقف خلف الجدار الثاني؛ وهو جدار عمر بن عبد العزيز «المخمَّس».

فكل الأخبار عن رؤية القبر أو الإطلال عليه أخبار كاذبة، وآخر من رأى القبر النبوي هو المؤرخ السمهودي ومن عاصره، سنة (٨٨١هـ)، حين هدمت جدران الحجرة لتصدعها، ثم أعيد بناؤها على صفتها، ومنذ ذلك اليوم وإلى هذا اليوم وهي مصمتة لا ينفذ إليها أحد، ولا رأى ما فيها أحد.

ثالثاً: الأساطير والأخبار والقصص التي تُروى عن محاولة نبش القبر النبوي أو قبر الصاحبين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأشهرها القصة التي تُروى عن: «نور الدين زنكي»، وأنه رأى النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** في المنام يستنجد به ويقول له: أنقذني من هذين، ويُشير إلى رجلين أشقرين، وأنه جاء إلى المدينة فطلبهما حتى وجدهما فعرفهما وقررهما، وفُتِّش بيتهما فوجد أنهما قد حفرا سردابًا متوجِّهًا إلى القبر بقصد نبشه، والقصة بتفاصيلها مشهورة في بعض كتب تواريخ المدينة، وهي قصة لا تصح، ولم يذكرها أحد من الذين أرَّخوا لحياة «نور الدين زنكي»[(١)].

(١) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٨٧)، وممن ناقش هذه القصة وبيَّن كذبها: د. إبراهيم بن محمد المزيني، في بحث بعنوان: «رواية صب الرصاص حول قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وكذا قصة الذين أتوا بتواطؤ مع أمير المدينة لنبش قبر أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وإخراجهما، فدخلوا ليلًا فخُسِفَ بهم عند المنبر[(١)].

وكذا قصة الحاكم بأمره؛ حاكم مصر العبيدي، وأنه أرسل من ينبش قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** والصاحبين لنقلهما إلى مصر، وأن أهل المدينة دافعوه، ثم هبَّت ريح شديدة كادت أن تقتلع الناس، فتاب الرجل الذي أتى لهذه المهمة.

ويلاحظ أن هذه القصص تنتهي بخوارق تشبه أحاديث القصاص ومروجي الغرائب!!

رابعاً: خبر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في فتح الكُوَّة فوق القبر، وأن أهل المدينة لما أصابهم القحط أتوا إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأمرتهم أن يفتحوا كوة على سقف القبر النبوي، فكشفوا كوَّةً فوق القبر، فأُمطروا حتى عمَّ المطر وأنبتت الأرض وأعشبت، وسمنت الإبل حتى تفتَّقت من السِّمَن فسُمي: «عام الفتق»[(٢)]، وهي قصة لا تصح، كما بيَّن ذلك ابن تيمية رحمه الله[(٣)] وغيره.

وإنك لتعجب من سياقة هذه القصة، فهل كان السقف حجاباً يُرفع بكشفه الدعاء، وهل يحجب النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** سقف البيت الرقيق، ولا يحجبه القبر العميق!

---

(١) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٨٩).

(٢) «سنن الدارمي» (٩٣)، و«غريب الحديث» للحربي (٣/ ٩٤٦)، و«الوفاء بأحوال المصطفى» لابن الجوزي.

(٣) «الاستغاثة في الرد على البكري» (ص:٢٦٥).

ثم إن القحط قد أصاب أهل المدينة عام الرمادة زمن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فلم يكشفوا السقف، ولم يفتحوا فيه كوة، وإنما فعلوا ما كانوا يفعلونه في حياة النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، فخرجوا إلى المصلى واستغاثوا بربهم، وقدموا العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عمّ النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** يدعو لهم.

خامساً: حكاية العُتْبِي ذكرها ابن عساكر في تاريخه وابن الجوزي في «مثير العزم الساكن»، وغيرهما؛ بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي، قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** فزرته وجلست بحذائه، فجاء أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير الرسل، إن الله أنزل عليك كتابًا صادقًا قال فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وإني جئتك مستغفرًا ربك من ذنوبي، مستشفعًا فيها بك.

ثم بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف، فرقدت فرأيت النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** في نومي وهو يقول: «الحق الرجل، وبشره أن الله قد غفر له بشفاعتي»، فاستيقظت فخرجت أطلبه.. إلى آخر الحكاية[1]، وهي

(١) «معجم ابن عساكر» (٧٣٨)، و«مثير العزم الساكن» (٤٧٧)، و«مختصر تاريخ دمشق» (٢/ ٤٠٨).

حكاية لا تصح، وهي مع ضعف إسنادها منكرة في متنها..

فلماذا يأتي النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** إلى شخص نائم فيوقظه ويرسله إلى هذا المستغفر؟ أليس هذا المستغفر هو الأرجى لرؤية النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**؟!

ثم كيف فقه هذا الأعرابي من الآية معنى لم يفقهه الصحابة، ولا التابعون، ولا علماء الأمة، كسعيد بن المسيب، والزهري، ومالك، وابن أبي ذئب وغيرهم، ولم ينقل عن أحد منهم أنه فعل ذلك أو استحبه؟!

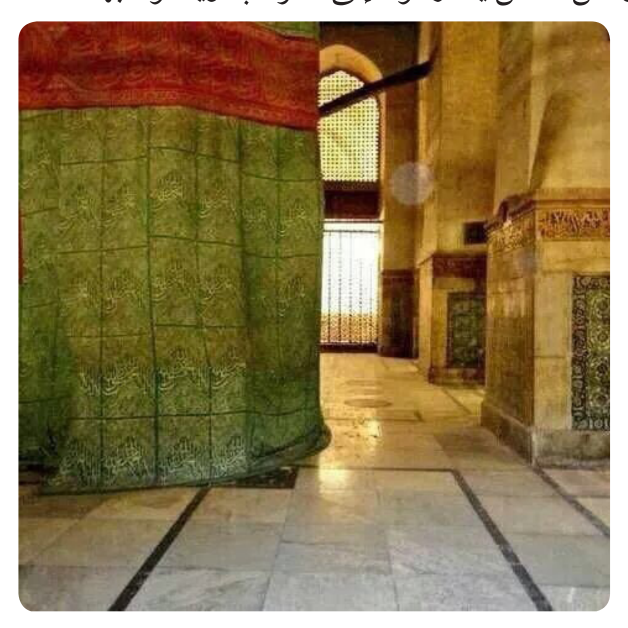
سادساً: الحكايات التي يرويها بعض المنتسبين إلى السادة الصوفية عن بعض الأولياء أنهم أتوا إلى النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** فسلَّموا على قبره، ثم سألوه المصافحة، فخرجت اليد الكريمة من القبر الشريف فصافحوها!

وهذه من الحكايات الباطلة والتي تروج في سوق الوضَّاعين والطُّرُقيَّة، فإن اليد الشريفة لم تخرج للبضعة النبوية؛ فاطمة عليها السلام، ولا لعائشة حبيبة **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، ولا لأبي بكر صاحبه في الغار، ولا لعلي بن أبي طالب ابن عمه وصهره، ولا لغيرهم من فضلاء الصحابة، ولا لمن بعدهم من سادة علماء الأمة، فكيف تخرج من بعدهم إلى هؤلاء الذين ادُّعي خروجها لهم؟!

سابعاً: الرؤيا المشهورة؛ رؤيا «الشيخ أحمد» حامل مفاتيح الحجرة النبوية، والتي كانت تُنشر بصيغة مشهورة تتكرر كل سنة

تقريبًا، وإن كنت أُلاحظ أنها قد انقطعت منذ سنين، ولكنها كانت تنتشر من قبلُ وتشتهر وتُوزَّع، فكتب الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله ردًّا عليها، ومن العجيب أن تنتشر هذه الخرافة مع أنه لا يوجد للحجرة النبوية باب ولا قفل ولا مفاتيح، فالحجرة النبوية جدار مصمت، ولا يوجد شخص اسمه «الشيخ أحمد»، ولا يوجد شخص له وظيفة اسمها «حامل مفاتيح الحجرة النبوية»!

ولكن الناس يسارعون إلى الغرائب ويُفتَنون بها.



(صورة للمقصورة من الداخل وتظهر الكسوة على الجدار المخمس)

ثامناً: ما يروى أن في حجرة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا موضع قبر سيدفن فيه عيسى بن مريم عليه السلام بعد نزوله إلى الأرض آخر الزمان، وورد في ذلك روايات؛ منها عن عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال:

مكتوب في التوراة صفة محمد **صلى الله عليه وآله وسلم** وصفة عيسى بن مريم يدفن معه[1]، وهذا خبر ضعيف الإسناد منكر المتن.

أما إسناده: فقد قال البخاري بعد إخراجه في التاريخ الكبير: «هذا لا يصح عندي ولا يتابع عليه»[2]. وفَصَّل الشيخ الألباني تضعيفه في «السلسلة الضعيفة»، وقال: «موقوف ضعيف»[3].

أما نكارة متنه: فإن هذا الخبر لو كان في التوراة لكان حجة على اليهود في عدم إيمانهم بعيسى وبمحمد عليهما السلام، وقد أسلم من اليهود جماعات، فما ذكروا هذا الخبر، ولا استدل أحد به منهم على اليهود.

ولو كان موجوداً لرد عليهم النصارى به، فهم جميعاً يشتركون في الإيمان بالتوراة.

ووردت روايات واهنة أخرى يدل اشتراكها في الضعف على اختلاقها، وأنها آثار واهية مأخوذة عن غير الكتاب والسنة.

ولكن أخرج الحاكم عن أبي هريرة قال: قَالَ **رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم**: «**لَيَهْبِطَنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا وَلَيَسْلُكَنَّ فَجًّا حَاجًّا، أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ بِنِيَّتِهِمَا وَلَيَأْتِيَنَّ قَبْرِي حَتَّى يُسَلِّمَ وَلَأَرُدَّنَّ عَلَيْهِ**» يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «أَيْ بَنِي أَخِي إِنْ رَأَيْتُمُوهُ

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٦١٧)، وقال: «حسن غريب».

(٢) «التاريخ الكبير» (١/ ٢٦٣)، (٦/ ٢٢٩).

(٣) «السلسة الضعيفة» (٦٩٦٢).

فَقُولُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ»[1] قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ بِهَذِهِ السِّيَاقَةِ» وأقره الذهبي.

تاسعاً: ما كان يفعله بعض المحتالين والدجاجلة قديماً؛ من إحضار تراب يزعمون أنه تراب القبر النبوي، وبيعه للجهلة، والذين ربما أكلوا هذا التراب تحريًّا للبركة أو طلبًا للشفاء.

وقد كان هذا يحدث قديماً بسبب قلّة قصد الحج والزيارة لعامة الناس في البلاد البعيدة، كالهند والمغرب ونحوها، وعدم وجود صور وقنوات تنقل حقيقة الحال في المسجد النبوي، ولذا تتشكل في أذهان الجهال صورة غامضة يستغلها هؤلاء المحتالون، فيضعون قوالب صغيرة من الطين، ويبيعونها على أنها مأخوذة من قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**[2].

(١) «المستدرك» (٤١٦٢). وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (١٢٥٢)، وضعف الألباني الزيادة في آخره. ينظر: «سلسلة الضعيفة» (٣/ ٦٤٧).

(٢) «عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم» إدوارد وليم لاين، ترجمة سيهر وسوم (ص٢٦٢).

كان تعظيم القبر النبوي في الأعصار المتقدمة يملأ القلوب مهابةً وإجلالًا؛ لما فيها من عظيم الحب والإجلال لساكنه عليه أفضل الصلاة والسلام، ولم يعبروا عن هذا الحب بمقارنات غير مأثورة، كالقول: أيهما أفضل القبر النبوي أم الكعبة؟ القبر أم العرش والكرسي؟ ونحو ذلك من المقارنات المتكلَّفة التي لا تُنشِأُ حباً ولا تعبر عن حُبٍ، وإنما هي من التكلُّف الذي حصل في وقت الترف العلمي في الأعصار المتأخرة، ولذا لم تُروَ عن الصحابة ولا التابعين ولا علماء القرون المفضلة.

وهذا التكلُّف في هذه المقارنات يطفئ وهج عظمتها في النفوس، فللكعبة مكانة ومهابة في قلب كل مسلم، فلا تشوش هذه المكانة بمقارنة، وإنما تبقى مرسلة كما وردت: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾.

وللكرسي عظمته: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

وللعرش قداسته: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

ولذا فإن القبر النبوي والكعبة المشرفة والعرش والكرسي لها عظمتها ومهابتها وجلالها وقداستها في قلب كل مسلم، مع توقي هذه المقارنات التي لم ترد عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ولا عن علماء

القرون المفضلة.

وإجراء المقارنات بين الفضلاء مهما أحيط بعبارات الاحتياط لا يخلو من إيحاءٍ بنقص المفضول عند المقارنة، ولذا فإن التفضيل يكون بالإجمال وليس بالتفصيل كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولم يذكر تعيينا للمفضول، وكذلك الرسول **صلى الله عليه وآله وسلم** قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، ومع ذلك نهى عن تفضيله على بعض الأنبياء على التعيين، فقال **صلى الله عليه وآله وسلم**: «**لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ...**» **وفي رواية** «**لاَ تُفَضِلوا بَيْنَ أَنْبِياءِ الله...**»[1] وقال: «**مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «اسْتَبَّ رَجُلاَنِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ **صلى الله عليه وآله وسلم**، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ **صلى الله عليه وآله وسلم** الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ **صلى الله عليه وآله وسلم**: «**لاَ**

(١) «صحيح البخاري» (٣٤١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٦).

تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى...»[١].

فالخوض في هذا الأمر لا يخلو من مغبة تعرض للنهي الوارد في هذه الأحاديث: «**لا تُفَضِلوا بَيْنَ الأَنْبِياء**».

وقال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقضى الله في هذه الآية على تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وذلك في الجملة دون تعيين مفضول، وهكذا هي الأحاديث عن النبي عليه السلام فإنه قال: «**أنا سيد ولد آدم**»، وقال: «**لا تفضلوني على موسى**»، وقال: «**لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**» وفي هذا نهي شديد عن تعيين المفضول، فربط الباب أن التفضيل فيهم على غير تعيين المفضول.[٢]

وهذا ما سلكه الصحابة رضوان الله عليهم في المقارنة بين أهل الفضل منهم، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا نقول ورسول الله **صلى الله عليه وآله وسلم** حي: أفضل أمة النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم نترك أصحاب رسول الله **صلى الله عليه وآله وسلم** فلا نفاضل بينهم[٣]، فالتفضيل هنا تفضيل إجمالي من غير تعيين المفضول.

ولا نزكي مقام النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** إلا بمثل ما زكىَّ

(١) «صحيح البخاري» (٢٤١١).

(٢) «تفسير ابن عطية» (١/ ٣٣٩).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٦٢٨) وأصله في البخاري رقم (٣٦٥٥).

به نفسه، حيث قال **صلى الله عليه وآله وسلم**: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**»[1].

فالأحوط والأسلم أن نقول: محمد **صلى الله عليه وآله وسلم** سيد ولد آدم، وأفضل البشر، وأفضل الأنبياء، وما أشبه ذلك؛ اتباعاً لما جاء به النص، وحتى نبقي في النفوس عظمة ما عظمه الله، وجلالته ومهابته كما وردت من غير أن نخدش ذلك بمقارنة مفصلة نتكلفها[2]- والله أعلم-.

(١) «صحيح مسلم» (٢٢٧٨).

(٢) ينظر في هذه المسألة: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤١١)، و«فتح الباري» (١٧٧٨)، و«تهذيب السنن» لابن القيم (١٧٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٢/ ٤٢٠) و«لقاء الباب المفتوح» لابن عثيمين (٥٣/ ١٢).

السفر إلى القبر النبوي

إذا زرت بعـد البيـت قـبر محمد ... وقبلتَ مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من العين الدموع مهابة ... لأحمـد بـين السـتر والحجـرات
وأشرق نـور تحت كل ثنية ... وفـاح أريـج تحت كل حصـاة

زيارة قبره **صلى الله عليه وآله وسلم** سنة من سنن المسلمين مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها[(١)].

وذلك أن زيارة القبور بعامة جائزة ومشروعة للاتعاظ والاعتبار، والدعاءِ لهم، وتذكرِ النقلة إليهم، وقد زار النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، وقال: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُوروا الْقُبُور فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»[(٢)].

وأخبرت عائشة أنه كان يزور قبور البقيع كل ليلة ولعل ذلك في آخر حياته؛ قالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقِيعِ**، فَيَقُولُ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا، مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ، بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ**»[(٣)].

---

(١) «الشفا» (٢/ ١٩٤).
(٢) «صحيح مسلم» (٩٧٦).
(٣) «صحيح مسلم» (٩٧٤).

وربما جاءه الأمر من ربه فخرج إلى البقيع أوَّلَ الليل.

كما في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: لما كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ **صلى الله عليه وآله وسلم** فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا، وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْدًا، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ، وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...، ثم قَالَ لها: «**فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي... فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ**»، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولِي: «**السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ**»[(١)].

وزار **صلى الله عليه وآله وسلم** شهداء أحد في آخر عمره، كالمودع للأحياء والأموات[(٢)].

وقال **صلى الله عليه وآله وسلم** فيما رواه ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «مَا مِنْ أَحدٍ مَرَّ بِقَبرِ أَخِيه المُؤمِن كانَ يَعْرِفه فِي الدُّنيا فَيُسَلِّم عَلَيه،

(١) «صحيح مسلم» (٩٧٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٩٦).

إلاَ رَدَّ اللهُ عَلَيه رُوحَهُ حَتى يَرُدَ عَلَيه السَلاَم»[(١)]، وفي لفظ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ رَجُلٍ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ»[(٢)].

فعموم هذه الأحاديث يدل على مشروعية زيارة القبور بعامة، ويدخل فيها القبر النبوي من باب أولى، فهو أشرفها وأفضلها وأزكاها، والصلاة والسلام عليه عند قبره **صلى الله عليه وآله وسلم** لها مزية كالدعاء لغيره عند قبره.

وقد ثبت ذلك عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(٣)] بمشهد من الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن غير نكير منهم؛ مما يدل على أن هذه حالهم وحال أبنائهم وتابعيهم، وتتابع على ذلك علماء الأمة وأجيال الإسلام جيلاً إثر جيل.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الاستذكار» (١/ ١٨٥)، ونقل ابن تيمية وابن القيم وغيرهم تصحيح ابن عبد البر له، وصححه عبد الحق في «الأحكام الوسطى» (٢/ ١٥٢-١٥٣)، و«الصغرى» (١/ ٣٤٤-٣٤٥) وكذلك صححه العراقي كما في «فيض القدير» (٥/ ٤٨٧).

(٢) «المجروحين» (٢/ ٥٨)، و«فوائد تمام الرازي» (١٣٩)، و«العلل المتناهية» (١٥٢٣)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٤٩٣).

(٣) «الموطأ» (٥٧٤).



(رسم تخيلي للقبور الثلاثة داخل البيت النبوي)

فكل دليل على مشروعية زيارة القبور يشمل أفضل القبور وأشرفها وأقدسها بالأولى.

وأما الأدلة الخاصة التي تذكر في فضل زيارة قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** مثل: «**مَنْ زارَ قَبْري وَجَبتْ لهُ شفاعَتي**»، و«**مَنْ حَجَّ ولمْ يَزُرْ قَبري فَقَد جَفَاني**»، ونحوها؛ فهي أحاديث ضعيفة وطرقها واهية.

وكذلك متنها منكر، فإن النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** لم يدع أحداً إلى زيارته في حياته؛ فكيف يوجبه بعد وفاته؟

ويرحم الله الإمام تقي الدين السبكي فقد تكثر بإيرادها في كتابه «شفاء السقام»، وكان في غنى عن التقوِّي بها، مع ورود الأدلة الصحيحة في مشروعية زيارة القبور بعامة؛ فكيف بأشرفها وأعظمها.

وأما مسألة السفر أو ما يعبر عنه قديمًا بشد الرحال، والتي أَشْهر القول بالمنع منها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)]، فإني في غاية الإعجاب به رحمه الله من جرأته في إعلانها، وصبره على الابتلاء في الصدع بها، وسجنه من أجلها، ولا يكون ذلك إلا من إمام رباني يحتسب ذلك عند الله، ويتدين لله بما يقوله، ويستشعر أنه لا يسعه أن يكتم ما يدين الله به، ولذا قدم بقية عمره من أجل موقف يعتقده ويتدين لله به، حتى مات في القلعة سجيناً رحمه الله وقدس روحه.

واستدل رحمه الله بحديث: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله وسلم، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[(٢)]، ولا يظهر- والله أعلم- صراحة هذا الدليل في النهي عن السفر لزيارة القبر النبوي أو غيره من القبور؛ فإن ذكر المستثنى يبين نوع المستثنى منه، فاستثناء المساجد الثلاثة دليل على أن النهي إنما هو عن شد الرحال إلى المساجد إلا ثلاثةَ مساجد، قال النووي رحمه الله: «معناه عند جمهور العلماء: لا فضيلة في شد الرحال إلى مسجد غيرها»[(٣)]، فليس لبقعة من

---

(١) ونسب مثل قوله إلى أبي محمد الجويني ذكره عنه ابنه إمام الحرمين في «نهاية المطلب» (١٨/ ٤٣٠)، وبالرجوع إليه يتضح أن رأيه الذي خالفه فيه ابنه هو حَملُ النهي في حديث: «لا تشد الرحال» على التحريم، وحمله غيره على الكراهة.

(٢) «صحيح البخاري» (١١٨٩)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٧).

(٣) «شرح النووي على مسلم» (٩/ ١٦٨).

الأرض خصوصيةٌ بالصلاة فيها إلا هذه المساجد الثلاثة، فقد خُصّت بتضعيف الصلاة فيها، وجواز شد الرحل إليها.

وأما السفر لأغراض أخرى: فحكمه حكم ما يسافر من أجله، فإن كان فاضلًا فالسفر فاضل، كالسفر لطلب علم، أو زيارة أخٍ في الله، أو صلةِ رحمٍ، وإن كان مباحاً فالسفر مباح، كسفر التجارة والسياحة، وإن كان لغرض محرم فالسفر محرم كذلك.

والسفر لزيارة القبر النبوي أو غيره من القبور ليس محظوراً بذاته، وإنما المحظور ما يفعل عند القبر من مخالفات، سواء كانت بسفر أو بدون سفر، فمن سافر لزيارة قبر قريبٍ أو صَدِيقٍ فسلّم عليه ودعا له، واعتبر واتعظ، فقد فعل خيراً وأصاب خيراً.

ومن ذهب إلى قبر بسفر أو بدون سفر، فناح ولطم، أو ابتدع بِدَعًا، أو دعا بدعوى جاهلية، أو صرف شيئًا من العبادة للمقبور، فقد فعل محرَّمًا وارتكب جرمًا ولو لم يسافر.

وقد تحول الخلاف في هذه المسألة إلى خلاف شبه لفظي، فصار يقال لمن سافر إلى المدينة قل: إني ذاهب لزيارة المسجد النبوي، ولا تقل لزيارة قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، مع أنه معلوم أن من ذهب ليزور القبر سيصلي في المسجد، ومن ذهب لزيارة المسجد سيزور القبر، ولذا فلم يظهر لي وجهٌ في امتحان الناس بطريقة التعبير عن قصدهم، فهم لم يشدوا السفر إلا لزيارة القبر والصلاة في المسجد، ورؤية البلد التي أحبها رسول **صلى**

الله **عليه وآله وسلم** وأحبته، وأوى إليها فآوته، ثم اختارها الله من بين فجاج الأرض كلها ليكون فيها ثواؤه ومثواه **صلى الله عليه وآله وسلم**، فهذه كلها أمانيهم ورغائب نفوسهم وباعث عزمهم.

ولذا فإني أرى شيخ الإسلام رحمه الله في رأيه هذا مجتهدًا، وفي صبره مجاهدًا، وأنه في ذلك كله فيما نحتسبه مأجور مبرور.

ولكني أميل عن رأيه إلى رأي جماهير العلماء، بمن فيهم فقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم، حتى يوشك أن يكون إجماعاً كما ذكر القاضي عياض[(١)] وابن هبيرة، والذين عبر عن رأيهم تلميذ ابن تيمية الحافظ الذهبي فقال: من وقف عند الحجرة المقدسة ذليلًا، مُسلِّمًا، مصليًّا على نبيه **صلى الله عليه وآله وسلم**، فيا طوبى له، فقد أحسن الزيارة، وأجمل في التذلل والحب، وقد أتى بعبادة زائدة على من صلى عليه في أرضه، أو في صلاته، إذ الزائر له أجر الزيارة، وأجر الصلاة عليه، والمصلي عليه في سائر البلاد له أجر

---

(١) ينظر: «الشفا» (٢/ ١٩٤)، و«الإفصاح» (١/ ٣٢٠). وينظر: كلام فقهاء الحنفية في: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٢٦٢)، و«المحيط البرهاني» (٢/ ٤٣٣)، و«الاختيار» (١/ ١٧٥)، وكلام فقهاء المالكية في: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٣/ ١٧٨)، و«المدخل» لابن الحاج (١/ ٢٥٨)، و«الذخيرة» للقرافي (٣/ ٣٧٥)، وكلام علماء الشافعية في: «طرح التثريب» (٦/ ٤٣)، و«الحاوي الكبير» (٤/ ٢١٤)، و«شرح النووي على مسلم» (٢/ ١٧٧)، وكلام فقهاء الحنابلة في: «الكافي» لابن قدامة (٣/ ٤٧٧)، و«المغني» (٣/ ٤٧٧)، و«الإنصاف» (٤/ ٥٣).

الصلاة فقط، فمن صلى عليه واحدة، صلى الله عليه عشرًا.

فزيارة قبره من أفضل القُرَبْ، وشد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء، لئن سلمنا أنه غير مأذون فيه، لعموم قوله صلوات الله عليه: «**لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد**»؛ فشد الرحال إلى نبينا **صلى الله عليه وآله وسلم** مستلزم لشد الرحل إلى مسجده، وذلك مشروع بلا نزاع، إذ لا وصول إلى حجرته إلا بعد الدخول إلى مسجده، فليبدأ بتحية المسجد، ثم بتحية صاحب المسجد- رزقنا الله وإياكم ذلك آمين-(١).

أما ما يجري اليوم عند كثير من القبور والمزارات والمشاهد في أنحاء العالم الإسلامي من أنواع البدع والمخالفات، والتوجه إلى الأموات بالدعاء والاستغاثة، وطلب المدد والولد، وكتابة الرسائل وتقديم النذور؛ فكل ذلك من إرث الجهل الثقيل، ومما لا شك في إنكاره وتحريمه، وشتان بينه وبين الزيارة الشرعية للقبور، التي هي دعاءٌ للميتِ وشفاعةٌ له، وليست دعاءَ الميتِ والاستشفاعَ به.

ولا أقول ذلك عن سماع أو رواية، ولكني أقوله عن شهادة ومشاهدة، فقد رأيت عند هذه المزارات من المحرمات والمنكرات، والخزعبلات والضلالات، وبخاصة في موالد أصحابها، ما يطول له الحزن، وتعظم به المصيبة!

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٨٤-٤٨٥) مختصراً.

بل إن ما يجري عند هذه المشاهد في مآتم الشيعة وموالد الصوفية، هو من الصد عن الإسلام، والإزراء بالمسلمين.

وليت شعري أيّ تصور عن هذا الدين وأهله يتصوره من يشاهد هذه المشاهد المفجعة، والأحوال القبيحة المنكرة؟ وماذا سيقول غير المسلمين إذا رأوا ذلك عن الإسلام وأهله؟!

ثم إنك تعجب أنه في وقت انتشار الإلحاد والجرأة على مُسلَّمات الدين يقع هؤلاء الطيبون والمتدينون من إخواننا في تديُّن منحرف وحالٍ محزنة؛ لأنا نعلم أنه ما دفع هؤلاء الطيبين إلى ذلك إلا صدق تدينهم، ولا أزلَّهم إلا قصور علمهم، ولا تكلفوا ما تكلفوه، وأنفقوا ما أنفقوه، إلا وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً، وأن ذلك مما يقربهم إلى الله زلفى، نسأل الله لهم الهداية والمغفرة.

وقد تتابع أئمة الإسلام علماء ومفكرون، على إنكار ذلك والتحذير منه، مما يدل على فشوه من أعصار متطاولة، كالشيخ كمال الدين ابن الزملكاني (٧٢٧هـ)، والمقريزي (٨٤٥هـ)، والصنعاني (١١٨٢هـ)، والشوكاني (١٢٥٠هـ).

ومن **المعاصرين**: الأستاذ محمد عبده (١٣٢٣هـ)، والشيخ عبد الحميد بن باديس (١٣٥٩هـ)، والشيخ رشيد رضا (١٣٥٤هـ)، والشيخ محمد بن سالم البيحاني (١٣٩١هـ)، والأستاذ الأديب مصطفى المنفلوطي (١٣٤٣هـ)، والشيخ أبو الحسن الندوي (١٤٢٠هـ)، والشيخ علي الطنطاوي (١٤٢٠هـ)،

وغيرهم من العلماء والمصلحين.

ولكن كل ذلك لا تعلق له بمسألة شد الرحال، وإنشاء السفر، فهذه المخالفات محرمة بكل حال، سواء كانت من مقيمٍ عند القبر أو مسافرٍ إليه.

والسفر إليه لهذه المحظورات سفر معصية، وشهودها مشاركة في المنكر.

ولا يُحرَّم السفر المشروع خوفاً من هذا المحذور[١].

فليست القضية في السفر إلى القبر، ولكن فيما يفعل عند القبر، أيّ قبر.

اللهم أقبل بقلوب إخواننا إليك، واهدهم لأرشد أعمالهم، وأزكاها وأرضاها لك، واعصمهم من نزغات الشياطين ومضلات الفتن.

برحمتك يا أرحم الراحمين.

---

(١) قال الشوكاني: وهي مسألة من المسائل التي طالت ذيولها، واشتهرت أصولها، وامتحن بسببها من امتحن. ينظر: «الدر النضيد» للشوكاني (١/ ٣٨٤).

ومن أشهر ما ألف فيها ما كتبه الشيخ ابن تيمية في الرد على الأخنائي، والسبكي في «شفاء السقام» وابن عبد الهادي في «الصارم المنكي».

وللشيخ د. محمد بن عبد العزيز الشايع بحث مستقص بعنوان: «موقف شيخ الإسلام من شد الرحال لمجرد زيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام» في مجلة الدراسات الإسلامية.



(صورة قديمة للمسجد النبوي)

سقى اللهُ قَبراً بِالمَدينَـةِ غَيثَـهُ فَقَد حَـلَّ فيـهِ الأَمنُ بِالـبَرَكاتِ
نَبـيّ الهـدَى صَـلَّى عَليـهِ مليكُـهُ وَبَلَّـغَ عنَّـا روحَـه التُّحفَـاتِ
وصلـى عليـه اللهُ مـاذَرَّ شـارقٌ ولاحَـتْ نُجُومُ اللَّيْـلِ مُبتَدراتِ

كما كان لنبينا **صلى الله عليه وآله وسلم** في حياته مهابة وجلال، ومحيا صدق، وبشير حب، فمن رآه بداهة هابه، ومن عرفه أحبه، ومن نظر إلى وجهه عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب.

وكان لأصحابه آداب كريمة هي من أَدبِ اللهِ لهم، فأحسنوا التأدب بها، ورعوها حق رعايتها، ومما أدبهم الله به في حضرته: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾.

ولذا فإن زائر قبره **صلى الله عليه وآله وسلم** عليه أن يتحلى بهذه الآداب، ويراعيها ويرعاها، ويستحضر أن للأنبياء عليهم السلام حياة برزخية لا يشابههم فيها غيرهم من الخلق، كما قال **صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمْ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»**[1].

وأخبر أنه لما أُسري به مرّ على موسى عليه السلام وهو قائم

(١) «مسند أحمد» (١٠٨١٥)، و«سنن أبي داود» (٢٠٤١).

في قبره يصلي[1]، وهذه حال خاصة بالأنبياء، بخلاف غيرهم الذين تنقطع أعمالهم بموتهم.

ومن خصائص الأنبياء في حياتهم البرزخية: ما ذكره **صلى الله عليه وآله وسلم** بقوله: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»[2].

ولذا فإنّ زائر القبر النبوي المقدس، عليه أن يراعي آداباً كريمة، ويستحضر معاني سامية، حين يقف بين يدي مقامه الشريف، ويتعامل في هذا الموقف كما ينبغي أن يتعامل مع النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** لو كان أمامه في حياته المباركة، ومن الآداب التي يراعيها من أكرمه الله بالوصول إليه، والحضرة بين يديه **ما يلي**:

١- إذا دخل المسجد النبوي قدم رجله اليمنى وقال ما ورد: «بِسْمِ الله، اللَّهُمّ صَلِّ وسَلِّمْ على رَسُولِ الله، أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»[3]، كما يقول ذلك عند دخول كل مسجد.

ثم يصلى تحية المسجد لأمره **صلى الله عليه وآله وسلم** بها

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٧٥).

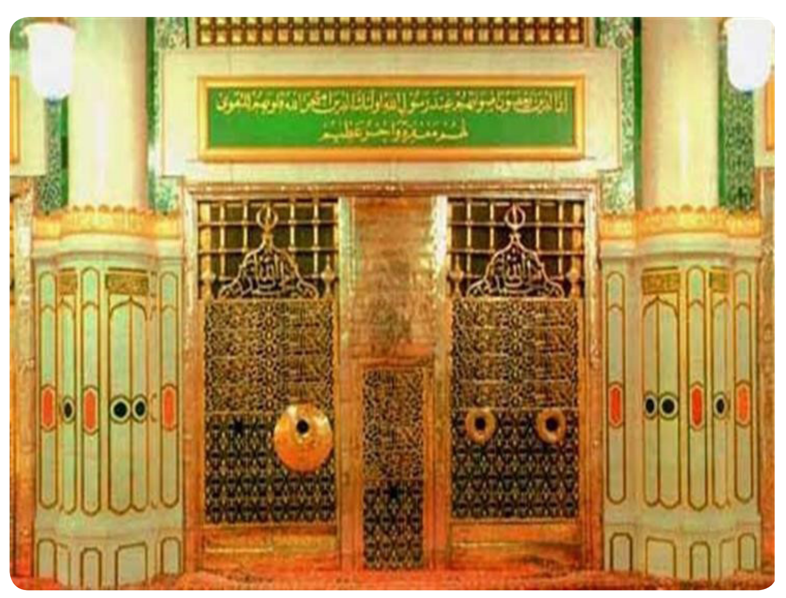
(٢) «مسند أحمد» (١٦١٦٢)، و«سنن ابن ماجه» (١٠٨٥، ١٦٣٦)، و«سنن النسائي» (١٣٧٤)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٧٣٣، ١٧٣٤)، و«المستدرك» (١/ ٢٧٨)، (٤/ ٥٦٠).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٦٥، ٤٦٦). وهو ملفق من حديثي أبي حميد وعبد الله ابن عمرو بن العاص.

في قوله: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِس**»[1].

فإن كانت نافلة صلاها في الروضة الشريفة بين المنبر وسياج الحجرة، فيكون المنبر عن يمينه، والحجرة عن يساره، فإن كانت الروضة مزدحمة صلى في أيّ ناحية من المسجد شاء، وتجنب المزاحمة التي تفقد المصلي خشوعه، وتفقد الصلاة روحَها، وإن كانت الصلاة فريضة، صلّى في الصف المقدم في أي مكان كان من المسجد.

ثم يتوجه إلى القبر الشريف بعد ذلك.



(صورة المقصورة من جهة القبلة)

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٤)، و«صحيح مسلم» (٧١٤).

قال الإمام مالك: يبدأ بالركوع قبل السلام في مسجد النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، وأحبّ مواضع التنفل فيه مصلى النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**؛ حيث العمود المخلق[١]، وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف الأولى[٢].

٢- فإذا توجه إلى المواجهة الشريفة للقبر، فإنه يقف أمام القبر مستقبل القبر مستدبر القبلة، كما هو الشأن في زيارة القبور، فإن المسلِّم على مَن في القبر يقف مستقبل وجهه كالسلام على الحيّ، ووجه الميت مستقبل القبلة، فيكون من يُسلِّم عليه مستقبلًا له مستدبرًا للقبلة.

قال الإمام مالك: إذا سلم على النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** يقف ووجهه إلى القبر، لا إلى القبلة، ويدنو ويسلم، ولا يمس القبر بيده[٣].

٣- التوقير والتعظيم واستحضار الحب النبوي الذي حمل على المسير إليه، وتذكر عظيم فضل الله به، ومنته على المؤمنين برسالته: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

(١) العمود المخلق هو العمود الذي كان النبي ﷺ يصلي عليه، وهو اليوم لصق المحراب النبوي.

(٢) «الشفا» (٢/ ٢٠٧)، والمراد بالركوع صلاة تحية المسجد، وقوله: «قبل السلام»، أي قبل السلام على النبي ﷺ في قبره.

(٣) «الشفا» (٢/ ١٩٩).

فهو مِنَّةُ الله العظمى، وفضله العظيم علينا.

٤- وعندما نزور قبره **صلى الله عليه وآله وسلم** نستحضر شوقه إلينا، فهو الذي وقف في البقيع وسلَّم على أصحابه الذين سبقوه، ثم بث أشواقه إلينا على أصحابه الذين معه، فقال **صلى الله عليه وآله وسلم**: «**وَدِدْتُ أَنَّا رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا! قَالُوا: أَوَ لَسْنَا بِإِخْوَانِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدَ... وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ**»[١].

فنبادله **صلى الله عليه وآله وسلم** حُبًّا بحُبّ، وشوقًا بشوق، فما حملنا إلى أعتابه الشريفة إلا لهفة الحب له، واستحضار عظيم حقه، ومنة الله العظمى به.

٥- استحضار الأدب، وأن تقف بين يديه كما تحب أن يراك واقفاً أمامه، بسكينة ووقار، وحُبّ وإجلال، وأن تكون حالك حال المحب المعظم لمحبوبه، المتشوق إليه، العارف لحقه وقدره **صلى الله عليه وآله وسلم**.

٦- أن تتذكر وأنت تقترب منه عظيم فضل الله عليك، يوم أوصلك إليه، وقربك منه **صلى الله عليه وآله وسلم**، وكم في أصقاع الأرض وأنحاء الدنيا من العباد من تذوب قلوبهم شوقاً للوصول إلى هذا المكان، والوقوف في هذه الأعتاب، ولكن حبسهم العذر، ويسر الله لك ما عجزوا عنه، فأوصلك وقد انقطع غيرك، وأدناك وقد نأى غيرك، فيا لها من نعمة أن تنال النفوس

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٩).

مبتغاها وأملها، وتنال من زيارة نبيها وصلها ووطرها.

٧-غضّ الصوت عند عتبات بيته، وتجنب رفع الصوت أو الصخب بين يديه، فقد أدّب الله أصحابه فقال لهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، فكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يخاطب النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** إلا مثل أخي السرار[1]،-أي: أنه يخفض صوته كأنه يُسِرّ إليه- ولما سمع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلين في المسجد يرفعان أصواتهما، دعا بهما، وقَالَ: مَنْ أَنْتُمَا، أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالاَ: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: «لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ **رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم**»[2].

٨-الوقوف بين يدي النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** بما يدل على الحياء منه، والهيبة له، كما كان يفعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ معه في حياته **صلى الله عليه وآله وسلم**؛ فإنهم لم يكونوا يُؤَبِّدُونَه أبصارهم[3]، وإنما ينظرون إليه بإغضاء، ولذا قال: عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند وفاته: «وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ **رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم**، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي

(١) «صحيح البخاري» (٧٣٠٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٧٠).
(٣) أي: لا يحدون النظر إليه، وَيُقَالُ: أَبَدَّ فلانٌ نَظَرَهُ إذا مدّه وأطال. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٨٢).

لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ»[1]!

٩- وأما ما يقال بين يديه **صلى الله عليه وآله وسلم** فأوله: السلام عليه، فيقول الزائر: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ثم الصلاة والسلام عليه بأفضل الصيغ وأتمها، وهي الصلاة الإبراهيمية، ثم الشهادة له بالبلاغ، فنحن أمته الذين خاطبهم بقوله: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**اللهُمَّ اشْهَدْ**»[2]، ونحن نشهد، هذه الشهادة عنده ونقول: نشهد أنك قد بلَّغْت، ونصحت، وأدّيتَ الذي عليك، فجزاك الله عنا خير ما جزي نبيًّا عن أمته، ورسولًا عن رسالته.

وبهذا تكون أديت ما يؤديه الزائر لمن يزوره، وبعدها تتحرك عن يمينك خطوة، وتُسلِّم على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: السلام عليك يا أبا بكر ورحمة الله وبركاته، رضي الله عنك وأرضاك، وجزاك الله عن أمة محمد **صلى الله عليه وآله وسلم** خير ما جزى عباده الصالحين.

ثم تتحرك عن يمينك خطوة، فتسلم على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: السلام عليك يا عمر بن الخطاب ورحمة الله وبركاته، ورضي الله عنك وأرضاك، وجزاك عن أمة محمد **صلى الله عليه وآله وسلم** خير ما جزى عباده الصالحين، ثم تنصرف بسكينة وهدوء ورفق بمن أمامك.

وأما الدعاء العام بمسألتك وحاجاتك، فأنزلها بربك القريب

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

لمن سأله، المجيب لمن دعاه، والقائل جل في علاه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾.

واعلم أنك أقرب ما تكون إلى الله في صلاتك في أي مكان من المسجد النبوي، وخاصة في الروضة الشريفة، فإن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، وليست حال الزيارة من أوقات الدعاء، ولا القبر من مواطن الدعاء.

وكذلك ذنوبك وهفواتك وخطاياك، ينبغي أن تستتر فيها بستر الله الجميل، ولا تفضح نفسك بها بين يدي نبيك، ولا تتجاهر بها أمامه، وإنما ننزل استغفارنا وتوباتنا بساحة عفو ربنا وحده، فهو القائل: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

والقائل: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

والقائل: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾.

فلا يجوز لنا طلب العفو والمغفرة إلا منه، ولا التوبة إلا إليه وحده، فهو الغفور الغفار، العفو التواب، جل وعز وتقدس.

١٠- عدم إطالة الوقوف؛ فإنّ خلفَك إخوةً لك في قلوبهم شوق مثل شوقك، وحبٌّ مثل حبِّك، فلا تستأثر عليهم بإطالة الوقوف بعد أداء ما ينبغي من السلام والصلاة، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقفون بين يدي النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** من غير

إطالة ولا إملال.

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا قدم من سفر أتى القبر فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ»[1].

وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَا يَمَسُّ الْقَبْرَ»[2].

وقال الإمام مالك فيمن وقف عند القبر: لا يلصق به، ولا يمسّه، ولا يقف عنده طويلا[3].

وقال الإمام أحمد: أهل العلم كانوا لا يمسونه[4].

١١- عدم تكرار الزيارة في اليوم الواحد مرات، وإنما تكون الزيارة عند القدوم وعند الوداع، وأما تكرار الزيارة فإنه سبب لزحام القاصدين، ويقطع عن أعمال صالحة فاضلة في مكان فاضل، وهو المسجد النبوي والروضة الشريفة التي ينبغي أن يهتبل الزائر أجر مضاعفة الصلوات فيها، الوارد في قوله **صلى الله عليه وآله وسلم: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ»**[5].

وقيل للإمام مالك: إن ناسًا من أهل المدينة لم يقدموا من سفر

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٦٧٢٤)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١١٧٩٣)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٥/ ٤٠٢).

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٤١٥٠).

(٣) «الشفا» (٢/ ٢٠٦).

(٤) «الإنصاف» (٤/ ٥٣).

(٥) «صحيح البخاري» (١١٩٠)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٤).

ولا يريدون سفراً، يفعلون ذلك- أي زيارة القبر النبوي- في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة- أي الأسبوع- أو في الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر، فيسلمون ويدعون ساعة.

فقال رحمه الله: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يُصلح آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلحَ أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده[1].

١٢- التأدب في خطاب النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**، ومن مراعاة الأدب في خطابه، عدم تخطي أمره بالغلو في وصفه بما لا يصح إلا في وصف الله عز وجل، مثل يا مغيث اللهفات، وغافر الزلات، ونحوها مما يكرهه وينهى عنه، فقد قال بأبي هو وأمي: «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ**»[2].

ولما قال له رجل: ما شاء الله وشئتَ! قال **صلى الله عليه وآله وسلم**: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[3].

١٣- الحذر من مراغمة النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** بارتكاب ما جاء بالنهي عنه، والتحذير منه، وهو صرف شيء من عبادة الله إلى غير الله، وقد كانت رسالته **صلى الله عليه وآله وسلم** ورسالة

(١) «الشفا» (٢/ ٢٠٥).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٤٥).
(٣) «مسند أحمد» (٢٥٦١، ٣٢٤٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٧٥٩).

الأنبياء قبله إلى أممهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، فالدعاء عبادة لله، فلا نتوجه بالدعاء إلا إلى الله ربنا الذي قال لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فانظر كيف أمرنا بدعائه، ووعدنا بإجابته، وكيف سمى الدعاء عبادة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾.

وإن من المراغمة له **صلى الله عليه وآله وسلم** أن يفعل بين يديه ما أتى بالنهي عنه، والتحذير منه، كصرف شيء من العبادة لغير الله، ولو كان ذلك لأفضل رسله، أو أكرم ملائكته.

١٤- ربما رأيت حول القبر النبوي بعض المخالفات التي تغلب فيها العاطفة مع قلة العلم، فاحذر من مخاتلة الشيطان لك أن ينفخ فيك العُجْبَ وازدراء الآخرين واستشعار الفضل عليهم، فقد يكون هذا الإدلال سبباً للخذلان، وأن يوكل الإنسان إلى نفسه وعلمه، ولكن على العارف أن يستشعر منة الله عليه بالهداية للتي هي أقوم، وينظر بعين الرأفة والرحمة إلى إخوانه الذين لم يزعجهم من ديارهم ويوقفهم في مقامهم إلا شدة حبهم لنبيهم، وهم إن أخطؤوا في بعض التصرفات إلا أنهم محل المحبة والرحمة، فهم الوافدون إلى **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** وقد قال: «**وأَجِيزُوا الوَفْدَ بنَحْوِ ما كُنْتُ أُجِيزُهُمْ**»[(١)].

فيعاملون بحب، ويعلمون برفق، وتراعى فيهم وصاة **رسول**

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٥٣).

الله **صلى الله عليه وآله وسلم** وحق الأخوة والإسلام، وما أرق كلام الإمام الرباني الحافظ الذهبي حين قال: «من زاره صلوات الله عليه وأساء أدب الزيارة، أو سجد للقبر، أو فعل ما لا يشرع، فهذا فعل حسنا وسيئا، فيعلم برفق، والله غفور رحيم.

فوالله ما يحصل الانزعاج لمسلم، والصياح وتقبيل الجدران، وكثرة البكاء، إلا وهو محب لله ولرسوله، فحبه المعيار والفارق بين أهل الجنة وأهل النار»[١].

وما تراه ممنوعا في نظرك قد يكون مجازاً وموسعاً فيه عند غيرك، قال عبد الله بن الإمام أحمد: «سألت أبي عن الرجل يمس منبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** ويتبرك بمسه، ويقبله ويفعل بالقبر مثل ذلك أو نحو هذا يريد بذلك التقرب إلى الله جل وعز؟ فقال: لا بأس بذلك»[٢].

١٥- أن في زيارة القبر النبوي استثارة لأفضل المشاعر وأجملها وأزكاها، وهي مشاعر الحب **لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، وهي من أعظم ما نتوسل به إلى ربنا؛ لمرافقة نبينا **صلى الله عليه وآله وسلم** في الجنة، كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى قِيَامُ السَّاعَةِ؟ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى **رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم**، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟**» قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**وَمَا**

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٨٤).

(٢) «العلل ومعرفة الرجال» لعبد الله بن الإمام أحمد (٣٢٤٣).

أَعْدَدْتَ لَهَا؟» قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا من كبيرِ عملٍ ؛ من صلاةٍ ، ولا صيامٍ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ **رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم**: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ بِشَيْءٍ مَا فَرِحُوا بِهِ»(١).

وكم عشتُ بهجةَ هؤلاء القاصدين من فجاج الأرض، وتلذذت بمرآهم وأنا أرى نشوة اللقاء، وهيبة الموقف، وانفجار الحب الزاخر في القلوب لاستشعار القرب منه **صلى الله عليه وآله وسلم**.

ولا أزال أذكر ذاك الشيخ المهيب المحبّ من بلاد المغرب، الذي دخل المسجد النبوي من جهة التوسعة دهشاً حائراً، فلقيني وكان ذلك من توفيق الله لي أن كنت وجاهه، فاتجه إلي وهو يسأل كيف يصل إلى قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** وكان دخوله المسجد من جهة التوسعة الواسعة، قد جعله لا يدري في أيّ ناحية هو، ولا كيف يصل إليه، فأتذكر لهفته وهيبته ومحبته، وهو يعبر عن أشواقه بقرب الوصول إلى أمنية طالما تمناها، وبقعة طالما اشتاق إليها، فقال بلغة لا صنعة ولا تَصنُّع فيها: أموت أنا بس أوقف بهاديك البلاصة(٢)!!

وكان مشهد الحب والدهشة والهيبة، مشهدًا مؤثِّرًا في وجداني، ووجدت أن أفضل ما أفعله أن أكون خادمًا لضيف

---

(١) «مسند أحمد» (١٢٠١٣).

(٢) بلهجته المغربية: أريد أن أقف في تلك البقعة ولو مِتُّ بعد ذلك!

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتركت شأني وذهبت معه، وأنا أرتوي من مشهد الحبّ واللهف لزيارة **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**، وسرتُ به حتى وقفت وإياه عند القبر المقدس، وكأنما استوت سفينة حبِّه على جُودِيها، وبلغت أشواقه مَحِلّها، وتخيلتُ النبي الرؤوف الرحيم بأمته **صلى الله عليه وآله وسلم** وكيف ستكون حفاوته بمن هذا حبه، وكيف سيكون تلقيه لمن هذا إقباله!

فيا لسعادة قلوبٍ يعمرها حبُّ الله ورسوله **صلى الله عليه وآله وسلم**، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليها مما سواهما.

١-القبر النبوي هو القبر الوحيد في الدنيا الذي يُعلم بيقين أنه قبر نبي، وثابتة نسبته إليه ثبوتاً قطعياً لا ريب فيه، وما سواه من القبور المنسوبة للأنبياء، لا يصح منها شيء إلا قبر الخليل إبراهيم عليه السلام؛ فإنه في الناحية مع الشك في تعيين المكان[١].

وكأنّ في بقاء قبره **صلى الله عليه وآله وسلم** واندراس قبور الأنبياء قبله، إشارة إلى بقاء شريعته ونسخ الشرائع قبله.

٢-عندما نستعرض تاريخ المسجد النبوي والحجرة النبوية المقدسة، نجد أحداثًا مريعة تعرض لها المسجد؛ أشهرها استباحة المدينة النبوية في وقعة الحرَّة، وتعطُّل الصلاة في المسجد النبوي سنة (٦٤هـ)، وكذلك الحريق الذي وقع بالمسجد سنة (٦٥٤هـ)، وسنة (٨٨٦هـ)، والانهيار الذي حصل بسبب الحريق على سقف الحجرة النبوية، ووصف أثره السمهودي عندما دخل الحجرة بعد نقض جدارها، وأن الركام كان داخل الحجرة بارتفاع قامة الإنسان، وفيه أنقاض سقف الحجرة، وسقف المسجد والأخشاب المحترقة.

ومما تعرضت له الحجرة: الغارات التي يقوم بها بعض متولي المدينة على ما فيها من هدايا ونفائس، كالغارة التي قام بها جماز

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٦٥).

بن هبة الله بن الحسين أمير المدينة سنة (٨١١هـ)، على الهدايا التي تهدى إلى الحجرة، وتكون في المقصورة حولها، وإلا فمن المعلوم أن الحجرة بجدارها المخمس والمربع مغلقة تماماً.

وكذا اعتداء الأمير غرير بن هيازع أمير المدينة أيضاً سنة (٨٢٤هـ)، وكذا اعتداء الأمير برغوث بن بتير عام (٨٦٠هـ)، وغيرها[١].

وهذه الأحداث لها دلالتها التي تؤكد بشرية الرسول **صلى الله عليه وآله وسلم** حياً وميتاً: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾، وأن النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** كما كان في حياته بشراً يتعرض لما يتعرض له البشر، حيث شج رأسه وكسرت رباعيته في غزوة أحد، وسال الدم على وجهه[٢]، وسقط مرة عن فرسه فجحشت[٣] ساقه، فكان يصلي قاعداً مُدَّةً بسببها[٤].

فكذلك بعد مماته.. قبره **صلى الله عليه وآله وسلم** كغيره من القبور في صفته وأحكامه، إلا ما استثني، وأنه لا تأثير له فيما حوله، وأن الأحداث الطبيعية تجري عليه كما تجري على غيره، فإذا تداعى جداره فسينهار، وإذا احترق سقف المسجد حوله

(١) وهذه الأحداث وغيرها مذكورة في كتب تاريخ المدينة، كـ«التحفة اللطيفة»، و«وفاء الوفاء»، وجمعها د. فهد الوهبي، ومنه استفدت.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩١١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٠).

(٣) الجَحْشُ: الخَدْشُ أو أَشَدُّ منه قليلاً.

(٤) «صحيح البخاري» (٦٨٩)، و«صحيح مسلم» (٤١١).

فسيحترق سقفه، وإذا انهار سقفه الأعلى فسينهار السقف الذي تحته.

وأن قبته عرضة للمؤثرات المناخية، ولذا تشققت وتصدعت، ورُمِّمت وأصلحت.

وهذه كلها رسائل إلى البشرية: أن هذا النبي الكريم **صلى الله عليه وآله وسلم** رسولٌ مُبلِّغ، وعبد لا يُعبد، وأنه لم يدَّع دفع الضرر عن نفسه ولا عن غيره: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

فإذا كانت هذه حال أشرف الرسل وأفضل الأنبياء في حياته وبعد مماته **صلى الله عليه وآله وسلم**، فكيف بما يجري عند قبور الصالحين، ومزارات الأولياء ومشاهدهم، من الاعتقادات الخاطئة والأعمال المبتدعة.

إن هذه الأحداث رسالة واضحة الدلالة على بشرية الرسل، وأن الأصل تعرضهم في حياتهم، وتعرض قبورهم بعد وفاتهم؛ إلى ما يمكن أن يتعرض له غيرهم.

فلا يُتجاوز الحدّ إلى الغلو في الاعتقاد بهم، فيعتقد فيهم ما هو من خصائص الربوبية، ولا في شعائر الزيارة، فيبتدع في زيارتهم ما لم يأذن به الشرع، ولم تجر به السنة المتبعة.

٣- إن رؤية المسجد النبوي والبيت النبوي وتخيله كيف كان،

وكيف كان المصطفى **صلى الله عليه وآله وسلم** يعيش فيه، فهذا المكان المحاط في مقصورة القبر النبوي هو البيت الذي عاش فيه النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** مدة حياته في المدينة، بل هذه المساحة أكبر من مساحته، وهذا السقف أعلى من سقفه، إن تخيل المكان كما كان؛ يُقَصِّر كثيراً من الأمل المتطاول في الحياة.

ويعلِّم الناس ما رضي الله لرسوله **صلى الله عليه وآله وسلم** من الدنيا، وهذا ما كان أهل المدينة يقرؤونه في حجرات الرسول **صلى الله عليه وآله وسلم** حين كانت ماثلة أمامهم، فكانت موعظة ناطقة بلسان حالها عن نصيب **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** من الدنيا، وما اكتفى به وكفاه منها.

ولذا قال سعيد بن المسيب حين هدمت: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، فينشأ ناشئ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق، فيرى ما اكتفى به **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس من التكاثر والتفاخر فيها[١].

وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: ليتها تركت فلم تُهدم؛ حتى يقصر الناس عن البناء، ويرون ما رضي الله لرسوله **صلى الله عليه وآله وسلم** ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[٢].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٨٨)، (٨/ ١٣٤)، «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٦/ ٢٨٣-٢٨٤).

والزائر لقبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** ومسجده، يرى شواهد باقية من ذلك، فمساحة المقصورة على صغرها شاملة لبيت النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** وبيت فاطمة عليها السلام.

وعمد المسجد القديم هي في مواضع جذوع النخل التي كانت أعمدته حين بناه **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**.

وأبعاده وارتفاعه محددة على أعمدته، وكل ذلك يذِّكر بتلك الحال التي كان النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** عليها، وكيفية عيشه وحاله في حياته **صلى الله عليه وآله وسلم**.

٤- في زيارة القبر المقدس رؤية مشهد استجابة الله لدعوة نبيه **صلى الله عليه وآله وسلم** حين دعا ربه: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(١)، فحُفِظ هذا الحفظ، وعُزِل هذا العزل، فلا تمتد إليه يدٌ، ولا يطاله نظر، بل يفصله جداران مصمتان بلا مداخل ولا نوافذ ولا فُرَج، ثم المقصورة العازلة لذلك كله، وفي ذلك غاية الصيانة والحفظ لقداسة القبر ومكانه ومكانته.

٥- ما فعله عمر بن عبد العزيز رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من حياطة القبر المقدَّس وحفظه، وفصله التام، كان بمشهد من علماء المدينة وفقهائها الذين جعل الإمام مالك إجماعهم حجة، لأنهم أبناء الصحابة وتابعوهم، منهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وعبيد الله

---

(١) تقدم تخريجه.

ابن عبد الله بن عتبة، وأبان بن عثمان، وسالم بن عبد الله بن عمر، وغيرهم.

وعمر بن عبد العزيز هو الأمير العالم المَهْدي، الذي كان ابن سيرين إِذَا سُئِلَ عَنِ الطِّلَاءِ[1]، قَالَ: «نَهَى عَنْهُ إِمَامُ الْهُدَى، يَعْنِي عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ»[2].

ثم إن عمر بن عبد العزيز صار الخليفة بعد ذلك، يرجع إليه أمر الدولة كله، فلو كان متردداً فيما فعل لأعاده كما كان، كما أعاد كثيراً من مظالم بني أمية.

ثم تتابع العلماء في المدينة وغيرها على إقرار ما فعله عمر بن عبد العزيز، وعدم إنكاره أو السعي في تغييره، كالزهري، وربيعة الرأي، وابن أبي ذئب، والأئمة: أبي حنيفة، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد ومن بعدهم.

ولا يمكن أن يتواطأ هؤلاء كلهم على ضلالة، ولا يمكن أن تخلو أمة محمد **صلى الله عليه وآله وسلم** من قائم لله بحجة، فهذا كله دليل على صحة ما فعله عمر بن عبد العزيز، وأن العزل والفصل بين القبور والمسجد قد تحقق بما فعله، ولذا فالدعوات التي تخرج في هذه الأعصار المتأخرة لإخراج محيط القبر من

(١) الطلاء: ما طبخ من عصير العنب، وبعض العرب يسمي الخمر: الطلاء. ينظر: «لسان العرب» (١٥/ ١١).

(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٥٧).

المسجد، هي سوء ظنٍّ بأجيال العلماء المتتابعين في أعصار الإسلام المتعاقبة، وإحداث قول لا سابقة له، وتم الاتفاق على خلافه، وظَنٌّ بأن دعوة النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** يوم قال: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»، دعوة لم تستجب، ولم يفقهها من رواها من علماء السنة!!

وقد قال ابن القيم في نونيته:

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

ومثل هذه الدعوات استفزاز لمشاعر المسلمين، واستثارة لِلَغَطٍ يضر ولا ينفع، ويفرق ولا يجمع، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

٦- يتضح لمن يزور المسجد النبوي ويقف تجاه القبر، ويطلع على تاريخ البيوتات النبوية، أن النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** لم يوضع قبره في المسجد، وإنما في بيته خارج المسجد، وكذا المسجد لم يبن على القبر، فقد بناه النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** في حياته، ولذا فالواقف أمام الواجهة الشريفة يكون وقوفه في مكان بيت حفصة بنت عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وأمامه قبر النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** وصاحبيه في بيت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(صورة المقصورة من الجهة الغربية)

وإنما دخل البيت في المسجد في حال استثنائية؛ لأن كلاً منهما لا يمكن تحويله عن مكانه، فلا يمكن نقل المسجد، ولا نقل القبر، فكلها توقيفية، فدخل البيت في المسجد.

وأحكم فقهاء التابعين- ومنهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله- فصل القبور عن المسجد فصلًا تاماً بالجدران المصمتة، ولذا فلا يصح الاستدلال بهذه الحال لرد الأحاديث الصريحة الصحيحة

المحكمة التي كررها النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** في آخر خمسة أيام من حياته، ثم أكدها وهو يكابد سكرات الموت، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمَّا نَزَلَ **بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم** طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»[1].

فلا يُرَدّ هذا النص الصريح المحكم احتجاجاً بأمر هو من خصوصية النبي **صلى الله عليه وآله وسلم**؛ لظروف وملابسات خاصة بحال قبره ومسجده **صلى الله عليه وآله وسلم**.

٧- دفنه **صلى الله عليه وآله وسلم** في قبر متواضع هو على صفة بقية القبور لا يميزه عنها شيء، بحيث لو نظرت إلى قبره **صلى الله عليه وآله وسلم** وقبر صاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لم تجد ما يميزها، ولو كانت القبور الثلاثة في مقبرة البقيع لم يكن هناك ما يميزها.

وكما عاش **صلى الله عليه وآله وسلم** مع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بدون شارة تميزه عنهم، حتى كان الغريب يقول: أيكم ابن عبد المطلب؟![2] فكذلك قبره بعد موته ليس له شارة تميزه.

فأين قبره **صلى الله عليه وآله وسلم** من تلك المزارات المشيدة، والقبور التي كأنها قصور تشييداً وأبهة، وتزويقاً وزخرفة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٥).

(٢) «مسند أحمد» (٢٣٨٠)، و«صحيح البخاري» (٦٣).

لقد رضي الله لنبيه **صلى الله عليه وآله وسلم** حال التواضع والعبودية له، ولو كان في تشييد القبور ورفعها مزية لأحد، لكان الأولى بها سيد ولد آدم **صلى الله عليه وآله وسلم**، ومع ذلك دفن في قبر لا يختلف في هيئته وسمته عن قبور مساكين المسلمين بشيء، وحقق **صلى الله عليه وآله وسلم** التواضع في حياته ومماته، وفي بيته وقبره، وكأنما يؤكد خياره الأول يوم خيره الله بين أن يكون مَلِكًا رسولًا أو عبدًا رسولاً، فقال: «**بل نبياً عبداً**»(١).

٨-القبر المقدس هو القبر النبوي، والمقدس هو المطهر والمنزه.

قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، قال ابن قتيبة: «يراد: المطهَّرة بالتبريك»(٢).

وقال الهروي في «الغريبين»: المقدسة المطهرة... وفي الحديث: «**لا قُدِّستْ أمةٌ لا يؤخذ لضعيفها من قويها**»(٣) يقول: لا طهرها الله(٤).

ومثله قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ

(١) «مسند أحمد» (٧١٦٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٦٧١٠)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠٦٨٦).

(٢) «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٨).

(٣) «المعجم الكبير» (١١٢٣٠).

(٤) «الغريبين في القرآن والحديث» (٥/ ١٥١٠).

طُوًى﴾، فسمى الله الوادي الذي نزل فيه الوحي على موسى بالوادي المقدس، أي المطهر المبارك.

فكيف ببيت النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، وتردد عليه جبرائيل بالوحي من رب العالمين؟!

ولما حضرت موسى عليه السلام الوفاة «**سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ**»[(١)]، أي: الأرض المطهرة المباركة.

فإذا كانت أرض الشام أرضا مقدسة، فكيف بالمدينة النبوية المقدسة المنورة، والتي هي حرم **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم** التي حرمها، ودعا فيها بالبركة المضاعفة، وجعل جزاء الصلاة في مسجدها أفضل من الصلاة في غيره من المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام، أليست هي الأولى بالتقديس والتطهير والبركة؟!

ولذا توصف الحجرة النبوية بالحجرة المقدسة[(٢)]، وتتابع العلماء وبخاصة تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على الدعاء لمشايخهم أن يقدس الله أرواحهم[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٣٩)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٢).

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤/ ٤٨٤)، و«شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (١٢/ ١٩٦).

(٣) ينظر: «العبر» للذهبي (٤/ ١٩٢)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٣٢)، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٥١٩)، و«العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص: ٤١٣).

ولذا يوصف القبر النبوي بالمقدس أي المطهر المبارك، بل المدينة كلها حقيقة أن توصف بذلك، كما توصف مكة بالعاصمة المقدسة، وتوصف فلسطين بالأرض المقدسة.

وإذا كانت المدينة النبوية مقدسة، فإن قدس الأقداس بها المسجد النبوي والروضة المشرفة، وبيوت النبي وقبره الشريف المقدس **صلى الله عليه وآله وسلم**.

٩- ما زرتُ المسجد النبوي ورأيتُ الزحام عند أبواب المسجد وحول القبر المقدس، إلا تذكرتُ قوله **صلى الله عليه وآله وسلم**: «**أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الْإِسْلَامَ**»، قَالَ حذيفة: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّمِائَةِ إِلَى السَّبْعِمِائَةٍ؟»[١].

هذه نتيجة أول إحصاء في تاريخ المسلمين يقولها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ متعجبين، يرون أنهم قد كثروا وتجاوزا عدد القلة ما داموا وصلوا إلى هذا العدد: ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فأقول: ليت للبراق عينًا فيرى!

ليتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رأوا المسجد الذي كانوا يجتمعون فيه فيجمعهم كلهم، قد صار أكبر من مساحة المدينة كلها في وقتهم، ومع ذلك تأتي عليه أوقات كثيرة وهو كظيظ من الزحام.

وأن بابًا واحدًا من أبواب المسجد النبوي يدخل منه في لحظة واحدة آلاف القاصدين، وأن عدد المسلمين قد تجاوز السبعمئة

(١) «صحيح مسلم» (١٤٩).

حتى قارب المليارين، وأنهم ربع سكان الأرض، وأن دينهم هو الدين الذي يزيد أتباعه ولا ينقصون برغم حرب المحاربين وكيد الكائدين، وصدق الله وعده: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

وأين أبو جهل، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وحيي بن أخطب، وعبد الله بن أبي ابن سلول، وغيرهم من صناديد الضلال وأئمة الكفر الذي جهدوا وهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؟!

١٠- إن من أهم العبر والاعتبارات من زيارة القبر النبوي: استثارة عواطف الحب النبوي الذي لا يصلح إيمان إلا به: «**لَاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[(١)].

ومن أعظم وسائل استثارة هذا الحب الاستزادة من التعرف عليه **صلى الله عليه وآله وسلم**، بمعرفة سيرته وشمائله، فكل من عرفه أحبه، وكلما اتسعت المعرفة به ازداد الحب له.

وكذا زيارة مسجده وقبره، فلقرب ديار المحبوب أثره في استثارة الحب، وتهييج الشوق إلى المحبوب.

نحن أدرى وقد سألنا بنجد ... أقصير طريقنا أم يطول
وكثير من السؤال اشتياق ... وكثير من رده تعليل[(٢)]

(١) «صحيح البخاري» (١٥)، و«صحيح مسلم» (٤٤).
(٢) «ديوان المتنبي» (ص٤٣٠).

فليس من بَعُد كمن قَرُب، ولا من دنا كمن نأى!

ولذا فاستثارة مشاعر الحب النبوي بزيارة قبره، ومسجده، وطَيْبتِهِ الطيبة به، مدد لهذا الحب الذي هو من أعظم وسائلنا إلى ربنا، ومن أعظم ما نفرح به، ونستبشر بطيب عقباه، فما فرح الصحابة بشيء مثل فرحهم بقوله **صلى الله عليه وآله وسلم** للأعرابي: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»[(١)].

وكما للقرب إليه أنسه وبهجته، فللبعد عنه لوعته وحرقته[(٢)]:

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا قباءٌ وهل زال العقيق وحاضره
وهل برحت بطحاءَ قبرِ محمدٍ أراهطُ غُرٌّ من قريش تباكره
لهم منتهى حبي وصفو مودتي ومَحْضُ الهوى مني وللناس سائرُه

اللهم اجعل أفضل صلواتك وسلامك وبركاتك على نبينا وحبيبنا وسيدنا محمد، وعلى آله وأزواجه وذريته، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، واجزه عنا خير ما جزيت أنبياءك ورسلك.

اللهم إنا آمنّا بنبيك، وأحببناه، واتبعناه وما رأيناه، اللهم فلا تحرمنا رؤيته يوم القيامة، فاحشرنا في زمرته، وارزقنا شفاعته، وأوردنا حوضه، وأكرمنا بمرافقته في جنات الفردوس الأعلى من الجنة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٨٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٩).
(٢) «الأغاني» (١/ ٤١).

ووالدينا ومشايخنا وإخواننا المسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الوهاب بن ناصر أبا الخيل

إسطنبول/ باشاك شهير

٠٢/ ٠٢/ ٢٠٢١م

فهرس الكتاب

بنى بيته حين قدم المدينة، وما كان أحد يدري حين بناه أنه يبني بيت حياته وقبر مماته، وأنه سيكون مأواه حيًا ومثواه ميتًا.



القبر المُقَدَّس